ضفائر زينب

ضفـــائـــر زينـــب

روايـــــــة

مسيــــرة سنــــان

ضفائر زينب

رواية

اسم الكاتبة: مسيرة سنان
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: عبير محمد
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى
رقم الإيداع: ١٦١٣٨ / ٢٠١٨

طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

المكتبة العربية للنشر والتوزيع
Arabic Library

Facebook.com/arabiclibrary2017

ها أنتِ الآن بكامل أناقتك.

تعبرين مدينة أحلامي، وتتنفسين من ثقبٍ في قلبي.

ضفائرك المتروكة خلفك، إنما هي حبالٌ أشنق خيالي بها،

عندما تتأجّجين داخلي!

الحياةُ داخل مدينة محتدمة، ضربٌ من ضروب الخيال، فكل شيء أصبح مأساوياً.

قريتنا لم تعد كما كانت، باتت باردةً وليس فيها ما يدعو إلى التفاؤل!

جارنا (منصور) و أبناؤه، ذهبو إلى إحدى الجبهات، ولا أعلم في أي اتجاهٍ باتت عيونُهم تُسقط أضواءها.

أخرج كل يوم، وأعود كما خرجت، ليس في جيبي سوى الخواء.

أجلس بجانب مقهى القرية القريب، والذي يعمل فيه (سامي)، رفيق طفولتي.

هو الوحيد الذي لم يلتحق بالجيش، وفضّل بأن يظل يقدم فناجين الشاي للمرتادين؛ حتى إنه في أغلب أيامه لا يأخذ أي نقود مقابل تلك الأكواب.

أختارُ طاولةً في الزاوية، أترك عليها جسدي المنهَك، أتأمل في أصابعي المتشقّقة جراء العمل المتواصل في حقل والدي، الشيء الوحيد الذي تركه لي بعد المنزل الصغير، وهذا بالنسبة لي يعدُّ تركةً متكاملة.

مرت خمس سنوات منذ التحقت بالخدمة العسكرية، حينها فقدت (صافي) ولم تأتِ عنه أخبار بعد ذلك.

الأحداث الأخيرة، جعلت الأمل مفقوداً بعض الشيء، بالنسبة لي لم يكن الأمل موجوداً أساساً!

لم يأتِ (سامي) ولم أشرب فنجاني اليومي هنا، أنهض وأخرج.

أمامي تقف شاحنة كبيرة، تحمل أثاثاً كثيراً، أقف خلف زاوية لجدار منزل مهجور لأرى ما الذي يجرى.

تنزل منه أسرتان، تبين بعد ذلك أنهما أسرتان نازحتان، وكانت قريتنا الصغيرة والبعيدة هي الهدف الجميل الذي قصدتاه للعيش بأمان.

ثلاثة أطفالٍ وامرأتان، ذهبوا باتجاه منزل يبعد مسافةَ عشر دقائق، وظلت فتاةٌ ووالدتها في مكانهما.

كان مع الأسرة الأولى كما تبين لي، صديقي (فارس)، أدركتُ أنه من جلب هذي الأسر النازحة إلى قريتنا بحكم عمله سائق مواصلات في فرزات المدن والقرى.

الفتاة التي كانت برفقةِ والدتها، كانت أنتِ، أنت يا (زينب).

إنها المرة الأولى التي رأيتكِ فيها، كنتِ مرهقةً، تحملين وجع المدينة داخلك، تجلسين مع والدتك المسنة بجوار عتبة الباب المقابل لمنزلي.

لا تعلمين حينها كيف تسربتِ إلى أوردتي، وجعلتِ تعبرين كل منافذ عقلي!

آمنت حينها بما يقال عن الحب من النظرة الأولى.

عندما يحتفي بك النبض، وتتراقص الأوردة، وتحتدم المسارات داخلك، حينها فقط اعلم أنك عاشقٌ عاشق!

هذا ما أحسسته عندما رأيتك لأول مرة، حتى و أنت منكسرة رأيتك شامخة، شامخة إلى الحد الذي جعلني أنزفُ من داخلي و أنا أنظر نحوك.

بعد ظهيرة ذلك اليوم، اليوم الذي بات مختلفاً، و أنيقاً، ومزهراً، والذي شعرت فيه بأن فراغات القرية امتلأت، وباتت أكثر انتعاشاً.

ألتقي ب(فارس)، أسأله عنكِ، يجيبني بأنكِ والأسرة الثانية جئتم نازحين، لشدة الموت الذي فتك بمدينتكم.

يخبرني (فارس) مسترسلاً، بأنه بالكاد خرج منها سالماً، كانت الاشتباكات من المدينة، والطائرات التي كانت تحوم تسكب المزيد من الموت على قاطني المدينة.

يريني قدمه المجروحة، إثر شظيةٍ نافرة .

ألتزم الصمت، بينما هو يسترسل في حديثه، ويخبرني كيف أنه فعل المستحيل ليخرجكم من تلك المدينة المحتدمة، رغم أن الموت كاد يفتك بكم جميعاً في قصف عشوائي للمدفعيات والطائرات معاً .

أرسمُ المشهد في عقلي، لأجده مُريعاً للغاية، و أقول في نفسي: كيف لوردة مثلك أن تعاني؟!

يكمل (فارس) حديثه، ثم يذهب دون أن يضيف شيئاً آخر، ودون أن أقول له أي شيء كذلك.

ننفض غبار الأرض عن ملابسنا، وكل واحد كنت يذهب في اتجاه.

أمشي، و أنا أعد الخطوات إلى بيتي، لا شيء أجمل من أن يحيي فراغ حياتك حُلمٌ يقفز من عينك ليختفي في عينك الأخرى مستقراً في قلبك.

ولا شيء أقسى من أن تجد نفسك هارباً من الموت، إلى مكانٍ غريب عنك، وحياة لا تشبهك، ووجوه لا تعرفها ولا تعرف!

أدرك الآن يا عزيزتي، كم كانت حياتك قاسية، و أنت تتنفسين البارود، وترتدين الخوف ليل نهار!

أدرك الآن معنى أن يكون المرءُ خاوياً من الداخل، وأن لا شيء أكبر من مغادرته لبيته وحياته، وذكرياته التي لطالما خبأها في علب الهدايا، وكراسات المدرسة، وملامح الجدات والجارات وأزقة المدينة وحاراتها .لم أعد أهتم كثيراً بمتابعة الأخبار عبر المذياع، ولم يعد يستهويني ذلك.

مكثتُ قبل عام، قرابة النصف من العام الذي يليه، و أنا منشغلٌ بمتابعة الجديد، لا شيء غير عدّاد الجثث الذي لا يتوقف.

ذات يوم أخذت مذياعي البائس، لففته بكيس بلاستيكي، وخبأته في صندوق، وتركته في الغرفة السفلية التي لا أدخلها إلا نادراً.

جلست في زاويةٍ من زو ايا الغرفة، هناك داهمتني ذكرياتي، جلست أتذكر صديقي (صافي)، لا أدري ما الذي أيقظ صورته في قلبي مجدداً، هو لم يغب، لكني كنت قد تناسيتُ ذلك الوجع.

كان ليلاً حالكاً، أصوات عواء الريح الباردة يشتد، المطر يتساقط بشدة، والبرق يلمع في قلب السماء كأنه يعلن ثورة المطر على الأرض؛ فللمساء ثورة وللمطر كلمته.

أر اقبُ ذلك المشهد من نافذةِ غرفتي، كأني لا أجيد فعل شيء سوى عد ما يتساقط من قطرات مطر ولكني لا أتقنه حتى ذلك.

أضع كفيّ على الزجاج، أقترب، أنظرُ أسفل مني فلا أرى سوى السيول التي قد حاصرت المنزل من كل اتجاه؛ وكأن المطر ليس له مكان يتجمع فيه إلا حول منزلي الصغير الذي يشبه قلبي.

أكلم نفسي:

"يا الله! المطر لا يرحم،

المطر لا يرحم".

أفرك عينيّ اللتين لم يزرهما النوم منذ ليلتين مضتا، مضتا بوَهَجِ نضارتي.

أتنفس مراراً عسى قلبي يعيد ترتيبَ نبضه الذي بات متسارعاً.

ببطء أبتعد عن النافذة، أتنفسُ بعمق و أنا أرمق مكاني الذي ينتظرني.

بصمت أقف في منتصف غرفتي التي لا تتجاوز مساحتها المترين طولاً والمتر والنصف عرضاً.

في الجهة اليمني تقبع خزانة ملابسي التي لا يتجاوز عدد أدراجها الأربعة، ممتلئة بملابسي التي بالكاد حشرتها فيها.

أنا لا أستغني عن أي قطعة من قطع ملابسي القديمة، وكلما اشتريت شيئاً جديداً، أضع القديم في كيس بلاستيكي و أتركه في خزانتي التي باتتْ على وشك السقوط.

أُخرجها كل فترة من تلك الأكياس، وأعيد غسلها وترتيبها وأرش عليها من عطري المفضل الذي أهداه (صافي) رفيقي أثناء خدمتنا في الجيش.

أحتفظ بكل شيء من ملابس وعلب سجائر، وأوراق وهواتف خلويّة، حتى الأرقام التي تخص (صافي) أدونها وأجعلها في أوراق وأضعها في درج من تلك الأدراج الممتلئة بالذكريات.

أصعد إلى العلية، أراقبُ المنزل الذي أمامي، الشرفة لأول مرة بعد مضي عام ونصف عام منذ غادرتها جارتنا هيفاء وزوجها إلى لندن، حيث إن ابنتها الكبرى عفاف تزوجت من رجل مسنّ، فأغدق الخير على كافة الأسرة.

الشرفة الآن، مضيئة، مضيئة يا (زينب)، كل شيء مظلم في المنزل الآن، بات يحتفي بك ويضيء.

أرى خيالك من خلف الستائر، تهبطين وتنهضين، لم أتبين ما كنت فاعلة، لكني أحسستُ بأني بتُّ مختلفاً، وبأن شيئاً جديداً، ملأ حياتي بهجة.

أغلق نافذتي المطلة على شرفتك، وأضع رأسي على ساعدي، وأنام.. أنام كطفل لا يعي ما يجرى له من أحداث!

الشمس ما زالتْ تقف بقسوة متوسطة السماء، وجارتنا تقف على الشرفة مكشوفة الكتفين، شعرها يتدلى ليغطي مساحة البياض أمام عينيّ.

أقفُ خلف جدار لمنزل قديم كلصٍ احترف سرقة الكحل من عيون الجميلات.

أطيل النظر إليها، بينما هي تلف شعرها وترفعه، يرتفع نبضي مع كل حركةٍ لذراعيها النحيلتين.

تختفي من الشرفة، يختفي ذلك القمر الذي كان يشعل سواد قلبي.

أشعر باليأس، أتجه إلى قهوة القرية، التي يعمل فيها صديقي (سامي)، أجلس على طاولةٍ خشبيةٍ في الزاوية، أقلبُ أوراقَ الجريدةِ المنسيةِ من أحدهم بشرود.

- هي أيش بك اليوم يا فرفوح؟

يندلع صوتُ (سامي) في أذنيّ مثل النار تماماً.

- هششش، اسكت الله يخليك.

أحاولُ الهروب من نظراته الساخرة إلى علبةِ السجائر، أفتحها، أخرج واحدة، أشعلها، و أبدأُ بمصها متخيلاً فَمَ ابنة الشرفة.

- اشرب اشرب، شكلك مسروق. يقول (سامي) ساخراً.

أثبت نظري في وجهه المتأزم، عاقداً حاجبيّ، يبتسم، ثم يختفي.

أنهض من على الطاولة، قاصداً بقالة التاجر توفيق، أدلفُ من الباب، يلتهمني امتداد الرفوف المرصوصةِ بأنواع المشروبات.

أمد يدي لأخذ علبة "كولا" فأرتجف ليسقط الرف بأكمله، لم أدر ما أفعل سوى التملص بصمت والخروج بهدوء.

على بو ابةِ منزلها، تقف الفتاة، تيبست كل ذرات جسدي، شعرت برغبةٍ كبيرة بالتهامها كقطعة سكاكر.

ترتدي عباءةً سوداء وحجاباً منقّشاً، كانت كل حركة تفتعلها وهي تنظرُ نحوي بمثابةِ وخزات بشيء حاد يخترق قلبي بعمق.

تثبت نظرها بي، (كأنها كذلك أعجبت بي؟).

أصلحت من هيأتي، جعلتُ أعيد ترتيب الفوضى العارمة التي أحدثتها داخلي.

تشير إليّ بيدها، ترتجف أوصالي، ثم تتوارى خلف الجدار.

أفركُ عينيّ، أتنفس، أسأل نفسي، هل أشارت إليّ حقاً أم أنني أهذي؟

ما كان مني إلا أن لحقتُ بها، كانت واقفة، ملصقةً ظهرها على الجدار، كم كانت شهية وهي تحاول إغرائي!

أقتربُ منها، فتبتسم، وعطرها يفتكُ بي، فأَطوقها بذراعيّ، فيرن جرس الساعة قرب رأسي و أقع على الأرض و أنا ممسك بوسادتي.

أقفُ مفزوعاً غير مصدق لما رأيته، لفترةٍ طويلة لم تزرني أحلام كهذه، لم يتورد قلبي، ولم تتجمد أوصالي خجلاً.

شعرت بالأسى لأني صحوت، أقول لنفسي ليتها كانت حقيقة!

حتى كنت أدخن في الحلم على غير عادتي، وكان (سامي) يتكلم بسخرية على غير عادته.

ربما هي رحمةٌ بنا أن نرى أحداً شغل مساحات من تفكيرنا في مناماتنا، هناك فقط نفعل ما لا نجيد فعله في الواقع.

ذلك ما حدث معي فعلياً، لشدة ما فكرت بكِ، رأيتكِ، وليتك كنت حقيقة معي!

- صباح الخير يا فتى.

أقولها لابن القرية الصغير (لطفي)، أجده جالساً على ناصيةِ الشارع وفي جانبه كيسٌ مملوءٌ بالبطاطا، لكنه ككل مرة يعود مخذولاً ولا يجد من يبتاع منه.

أسرع في خطواتي، بينما هو يتمتم بكلماتٍ لا أسمعها لكوني قد ابتعدت.

الغيم يلف السماء، توشك أن تمطر، الأفق ملبَّدٌ تماماً، والضباب يقتربُ شيئاً فشيئاً.

أصل إلى منزلي الطيني الصغير بعد يوم شاق ومتعب قضيتُه في الحقل، أعود أخيراً في منتصف هذا النهار البارد.

بينما أنا أفتح الباب، إذ بي ألمحكِ في الشرفة تنفضين الغبار عن الستائر.

بدوتِ ناعمة، شعركِ ملفوفا خلفك، ترتدين تنورةً طويلةً سوداء وبلوزةً بلون هذه الخضرةِ الممتدة على اتساع القرية.

لم أستطع منع نفسي من التحديق فيك، نسيت أمر المفتاح وجلست قرابة خمس دقائق وأنا أحاول إدخال المفتاح في ثقب الباب لكنه لا يستجيب، لأكتشف أنني أحاولُ إدخال المفتاح بالمقلوب.

ضحكت في نفسي يا (زينب)، كانت هذه الضحكة بريئة كالأطفال، كوجهك القمري، كعينيكِ الذبّاحتين، ككل شيء جميل بات يحتفل بجمالك المنسجم مع الطبيعة.

منذ اليوم الأول الذي حضرتِ فيه إلى قريتنا، رغم أنكِ جئتِ نازحة،

ممتلئًا قلبك بالجراح والخوف؛ تلونت وأزهرت كل المساحات الجافة فيها،

حتى قلبي الذي لم يعرف الخضرة يوماً، بات مليئاً بالندى والسنابل والفراشات.

أفتحُ الباب بعد ارتباكٍ نالني، أدخل مسرعاً وأصعد نحو النافذة، أفتحها و أقوم بإصلاح تربة الزهرات التي بذرتها مؤخراً في صندوق مستطيل خارج النافذة، عندما رأيتِ النافذةَ أُشرعت، أسرعت بالدخول وأغلاق الشرفة.

لكنني حظيت بالنظر إليكِ و أنت تركضين مرتبكة.

ذات صباح، سمعت صوتَ والدتك وهي تنادي باسمك، كان صوتها مرتفعاً لدرجةٍ جعلته يخترق ثقوبَ نافذتي ويصل إلى سمعي.

منذ ذلك اليومِ، بدأْتُ الكتابة لكِ، وقررتُ بأن أهديك ما أكتبه فور انتهائي.

أكتبُ لكِ كل يوم، وأخبركِ بالتفصيل عما يحدث لي عندما أراك، أو حين تغيبين.

أسميتُ كتاباتي لكِ: (مذكرات عاشق)!

سألتُ نفسي و أنا أدون لك كل لحظةٍ عن كل شيء أعيشه معك في عالم خيالي الخاص، هل ستقر أينَ يوماً ما كل ما أكتبه؟

لا أعلم بما أجيب نفسي، لكني قررتُ الكتابة وحسب، وتركَ الإجابة للأيام في حال أهديتكِ هذه المذكرات وتقبلتِها.

تمرين من أمامي و أنا أجلس على عتبة منزلي؛ كل شيء داخلي يحتشدُ لأجلك، أتكاثر و أبدو جميلاً للغاية.

لم أجرؤ يوماً على محادثتك، أخاف ردةَ فعلك إن حاولتُ ذلك، لم أشأ أن أسبب لكلَيْنا حرجاً يا عزيزتي.

أؤمن بما أجده في قلبي، ومؤمن بولادة لحظةٍ قد تجمعنا سويةً.

تدلِفين إلى البقالةِ القريبة، تشترين حاجياتك ثم تخرجين منها كنسمة حالمة، و أنا ما زلتُ في مكاني.

أغار من العباءة التي ترتدين، وهي تفصل تقاطيع جسدك المجنون.

كنتِ الوحيدة التي لا ترتدي نقاباً، وجهك يبدو مضيئاً و أنت تنسلّين من أمامي إلى داخل منزلك.

لكنك لم تلاحظي وجودي، ولم ترمش عيناك إليّ مرةً أبداً.

تساءلتُ: هل تتعمدين فعل ذلك، أو أنك لا تهتمين مطلقا؟!

مؤلمٌ هذا الحب، لذيذ لدرجةِ الهذيان، يمنحك ردات فعل صبيانية، تنسى تماماً أنك كبرت وعليك أن تبقى رزيناً.

أشكرُ الأحداث الأخيرة، التي جعلتكِ تتركين مدينتك وتأتين لتسكني هنا، امتلأت القرية بالنازحين، غير أنهم سكنوا في البيوت، ووحدكِ سكنتِ بداخلي.

أجلس في غرفتي، الساعة تقترب من الثامنة، أحتسي فنجاناً من الشاي وصوب قلبي تماماً، ضوء خافت يظهر من خلال نافذتك.

الليل البارد لذيذٌ يا (زينب)، ورغم ذلك لا معنى لقسوته في حضرتك.

هذا الفنجان الذي أمسكه يُشبهني كثيراً، ممتلئٌ، لكنه بلا ثغر ليفرغ كلما فيه داخله.

أنظرُ إلى حوافه كم هي زَلِقة، تماماً كهذا الوقت الذي أقضيه هكذا متأملاً في شرفتك، كم هو قصيرٌ وغدّار.

أرشف من الكوب، أحدّق كثيراً في القطرة الأخيرة التي تعلق بحافته، كيف أنها تنزلق شئياً فشيئاً حتى تغيب تماماً في سواد الشاي.

هل تعلمين؟، إنها تشبهني كثيراً، وهذا الفنجان كأنه أنتِ.

كلما رشفته شعرت بأن كل شيء داخلي يتمدد، أغمض عينيّ وألتهمُ خيالكِ الجامح.

أثناء شرودي بكِ، أَسْمَعُ طرقاً شديداً بباب المنزل؛ أنهض لأرتدي قميصي وأذهب لأجيب.

الواقف خلف الباب صديقي (سلام) الذي لطالما كُنْتُ أخبره بأنه ليس له نصيبٌ من اسمه أبداً فيستشيط غضباً، فأضحك عندها كثيراً.

بلا مقدمات يقول:

- هيا سوف ننطلق.

لم أناقش وأكتفي بصمتي المنشغل بكِ، أقول له:

- دعني آخذ حاجتي.

أدخل مسرعاً إلى غرفتي وأرتدي بنطالي الجينز، وأخذ من الدرج أوراقي وأقلامي وحقيبةً كنت أجمع فيها قصاصات وصورا وجرائد، أطويها تحت ذراعي وأخرج.

تدور عيناي بسرعة خاطفة إلى كل زو ايا المنزل، مطفأةُ سجائري على الطاولة، قررت أن لا آخذها، صورة أمي، وساعة الحائط الذكرى الوحيدة من صديقي الذي اختفى منذ خمس سنوات (صافي)، تركت كل ذلك على أمل عودتي.

عيناي من نافذة السيارة لا تنظران إلا لمنزلك، لنافذتك؛ الضوء خافتٌ والستائر مطوية وساعة الحائط تظهر في الزاوية المحاذية تماماً لشرفة غرفتي.

أتمنى لو تسمعين صوت السيارة، وتنهضين من نومتك لتطلي عليّ لآخر مرة.

لكن (سلام) انطلق مسرعاً ولم يتح لي وقتاً أكثر، لكي أتشبع من النظر إلى نافذتك.

الضوء الخافت يحاولُ أن يخبرني شيئاً، إنه يشبهكِ حين تصمتين، حين تبكين، حين تمشين منكسرة على الرصيف، يشبهك وأنت الآن نائمة ولا يُشبهني.

تلتهمنا الطريق ونحن متجهان إلى العاصمة، تفصلُنا عنها أربع ساعات تقريباً.

-"المدينة بكر". هكذا كان يردد دوما صديقي (صافي).

يضحك كلما ذكرتُ له بأني قد أعشق يوماً ما، يرمقني بعينيه ثم يتوارى خلف الأشجار ليكتب مذكراته ويخبئها ما بين الأغصان بعد أن يلفها بكيس بلاستيكي ليقيها المطر ورطوبة الأشجار وكي لا يراها أحد.

ألتفت إلى (سلام) و أتذكر عندما كنا في الجيش قبل خمس سنوات حين كانت أحلامنا تناغينا ونحن نتذاكر طفولتنا. أقول له:

- دعنا لا نبتعد عن بعضنا يا (سلام)، لنكن معاً حتى في الموت.

يرمقني بنظراته الساخرة ويقول لي مبتسماً:

- نعم سنكون معاً حتى في الموت، لكن قبلها لنكن معاً في الحب أيضاً.

يقود السيارة وهو مبتسم، كأنه كان يتذكر طيفاً لحبيبته أو قبلةً غير مكتملة.

- هل تذكر اليوم الذي تعاهدنا فيه يا (يوسف) بأن نكون معاً في الحب قبل الموت؟

- نعم وتواً مرت الذكريات كغيمٍ ياصديقي.

- لقد أحببتُ ثلاث نساء يا (يوسف) وكلهن تزوجن وتركنني.

يصمت قليلاً ثم يقول:

- ومن التي سترضا برجل يلاحقه الموت في كل مكان؟

لم أستطع حينها قول شيء، فكلماته مؤثرة للغاية، عيناهُ تلمعان وهو ضاغط على شفته السفلى بأسنانه ويداهُ تحركان مقود السيارة كتلويحات وداع.

كم نحن بائسون إن أحببنا الوداع أكثر من اللقاء، كم نحن مثيرون للشفقة ونحن نخفي تفاصيلنا الصغيرة حتى عن أنفسنا.

طال طريقنا واشتد سواد الليل، لم يكن في السماء نجوم، ولا حتى نصف نجمة متوارية خلف غيمة؛ الكون مطفئٌ تماماً.

الرياح باردة ولها صوتٌ يشبه صوت الوجع الذي يتكاثف بداخلي ويغدو حمامات تحط على عظامي.

أتساءل في نفسي:

هل سأجدكِ عندما أعود من مهمتي؟

هل ستبقين منتظرة، أو أنك ستختارين الحياة بعيداً عني، خاصة و أني ذهبت من دون أن أخبرك، أو أكتبُ لكِ حتى؟

ألوم نفسي كثيراً لأني لم أترك لكِ حتى رسالة، أخبرك فيها بأني سأعود أو سأموت.

كلما عاد صوت سلام يتردد في رأسي؛ كلما أمعن في وجعي و أتخيلك تغادرين مواسم أضلعي تاركة الشرفة؛ معلقةً شالكِ للذكرى.

كيف لنا أن نحيك من خطواتنا معاطف ندفئ فيها كل برد السنين التي تمر ونحن ننتظر القدر كي يسقط في طريقنا؟

ثلاث ساعات ونصف منذ انطلاقنا باتجاه هدفنا...

هل تعلمين؟ كل جندي منا يمكث على التخوم بضعة أشهر ثم يعود إمّا ماشياً أو محمولاً في صندوق ملفوف بالعلم، بجانب رأسه قبعته وخيباته الكثيرة.

يتذكره أقرانه بكل خيباته وأمنياته وحتى حبيباته؛ أحياناً يضحكون وكثيراً ما يصمتون ببؤس.

يظل (سلام) صامتاً، عيناهُ فحسب تقولان الكثير.

العيون تتكلم ولها لغة مفهومة أكثر من الكلمات،إنها مرايانا وهي واجهة قلوبنا ومنبع أسرارنا، ولغز كبير يفضحنا، ويربكنا.

أبلغ صوتي أنا الآخر و أبقى أحكي لطيفك كلما انعطفنا يميناً أو شمالاً، وكلما صادفنا مطباً أو اهتزت الحصى تحت عجلات السيارة.

يطول الدرب ويطول معه صمتنا.

لا نسمع غير فحيح قلوبنا ولهاث الرياح وهي تخترق ثقوب السيارة.

نصل إلى حدود العاصمة، ننعطف يساراً باتجاه الجبل حيث ينتظرنا أقراننا من الجنود والضباط.

ننزل من السيارة بعد أن تتوقف خلف شجرة طويلة وكثيفة الأوراق تشبه المظلة تماماً.

ننفض عنا غبار الطريق، نتهيأ، آخذ حقيبتي و أنطلق مع (سلام).

رفاقنا ينتظرون وصولنا، يستقبلوننا كما يليق.

ندخل إلى الخيمة وهي تَعِجُّ بروائح التبغ المتخمّر.

الخيمة خالية يا (زينب)، ليس فيها غير الخواء وقماشةٌ ممدودة على اتساعها.

عيون الجنود وحدها من تخبرني بأن العم (سليم) قد توفي، الوجوه ترتدي البؤس والشفاه يابسة متشققة لا يبلها حتى الريق، لأنه لم يعد يتوفر في أفواههم ليبلوا به شفاههم.

العم (سليم) الذي كان لي وطناً ومربياً، بعدما فقدت أبويّ في حادث سير في طريق القرية الوعر.

القرية التي تحمل وجهك وتخفي عطرك وسمرةَ بَشَرتك.

الفقد شيء سيء للغاية، يجعلنا يا (زينب) نقف في زاوية حزننا بصمت ولا ندرك إلى أين نذهب أو ماذا نفعل؛ نغدوا أشبه بورطة لا نستطيع الفكاك من أنفسنا ولو بحيلةِ التناسي.

أخرج من الخيمة متوارياً خلف الشجرة، ليس بجانبي غير البعوض والعقارب التي كان يطول حجمها في الأرض من جراء نور القمر الساطع بشدة بعدما توارى خلف الغيوم، وتظهر النجوم أخيراً.

أجلس وحدي يا (زينب)،أسترجع وجهك وأعيد ترتيب ملامحك في قلبي،و أتخيلك بجانبي بدلاً من كل هذا القلق وظلمة روحي التي تجمعت حولي محكمةً إمساكي.

أتذكركِ و أتذكركِ، حتى كدت أراكِ حقيقة أمامي.

أستعيدكِ من جديد مع تلك الليلة التي كان القمر فيها ساطعاً، هكذا غير أنها في ذلك الوقت كانت السماء تمطر، والآن لا مطر غير دموع هذا القلب.

الليل فيها باردٌ يا (زينب)، و أنتِ تر اقبين هطول المطر، و أنتِ تقفين خلف زجاج نافذتك.

أر اقبك في ذلك الوقت، أحاول جاهداً التقاط صورة لوجهك مع كل التماعة للبرق.

أتخيلك عارية الكتفين، مسدلةً شَعْرك الطويل، واضعةً شالك بالقرب من النافذة، تماماً كالحنين.

تحدقين يا (زينب) باتجاه السيل الذي كان يبدو مع كل لمعةٍ للبرق صورةً أخرى لِحُزْنِيْ الجارف.

أتوقف عن السرحان فيكِ، وأنا أراقب خيالك من خلف الزجاج وأتساءل:

- هل تنظرين باتجاه الأفق؟

لماذا كانت يداك تحتضنانِ الوَحدة وأنتِ واقفة كَظِل منحسر؟

هل تقفين منكسرة حزينة أو أنه خيالي؟

كان بودّي حينها أن أقفز من شرفة غرفتي إليك، وأن أشاركك لحظات شرودكِ.

كنت أقول في خاطري:

- ماذا لو كنت قطرة مطر تدخل من ثقبٍ في الزجاج لتقع على طرف كفك.

ماذا لو كُنْتُ قطرة يا (زينب)، ماذا لو كُنْتُ دمعتك؟

بقيتِ واقفةً طويلاً وأنا أتخيل عينيك وأنت تنعمين النظر إلى ألاسفل.

وجدتكِ ترهقين كفيك وأنت واضعةً لهما كفراشات على الزجاج وملصقةً جبينك الزاهي.

يتوقف المطر وتبدأ الغيوم تنقشع عن القمر ليعود نوره ويخترق بصيرتي فأراك تعانقينه بعينيك.

لفترة طويلة أبقى واقفاً أنتظر التفاتةً منك ولو لم تكن مقصودة، غير أني تمنيتها، لكنك لم تفعلي وبقيتِ على حالك ذاك.

وجهي ملبدٌ يا (زينب)، أتأمل في أصابعي فأرى أنها غدت متجعّدة للغاية.

البرد يخترق الثقوب ويستقر في قلبي، و أنا أقف أراقبك، لكن قلبك بلا عينين.

أذهب إلى فراشي بعد ساعةٍ مليئة بالتوتر والانتظار، لم أحصد منها غير اليأس.

أتقلب كثيراً، أغمض عينيّ بقوة استجداءً للنوم، لكنني أستطيع البقاء على الفراش سوى لبعض الوقت و أنا أجلد قلبي و أقولُ له:

- كيف تركتها معلقة هناك؟

أنهض مجدداً، لكني هذه المرة أفتح النافذة وأخرج رأسي كي أتمكن من رؤيتكِ جيداً.

هل تعلمين أني أصبتُ بالخواء لأنني لم أجدكِ تقفين؟

هل تدركين يا (زينب) ذلك البؤس الذي يكسو ملامحي ويجعلني رجلاً لا يعرف في تلك اللحظة غير الألم؟

أين ذهبتِ يا (زينب)، لماذا تركتِ النافذة؟

أين اختفت الشرفة؟، أين تركتِ شالك و أنت ترهقين الصمت؟

ما الذي تفعله هذه الشجرة الطويلة هنا أمامي؟

أين ذهبت نافذتك و أين اختفى التماع المسافة بيننا؟

أَبدأ أشعر حقاً بحجم المعاناة التي تنتظرني.

ذهب والدي المربي (سليم) كما ذهب من قبله صديقي (صافي)، لم يتبق لي غَيرُكِ في مأزق حياتي هذا؛ ولم يتبق لي غير (سلام) الذي أعتبره مأزقي الجميل.

الحياة بحد ذاتها مأزقٌ كذلك؛ أتعلمين؟

كل شيء حولنا مأزق، كيف سننجو وماذا بوسعنا فعله؟

أتأمل حولي فلا أجد سوى الخيام وأصوات الرياح، وهي تدخل من ثقوبها وتخرج معها رو ائح التبغ.

أتذكرمطفأة سجائري و أقول في نفسي:

- لو أنك أحضرتها معك، لساعدتك على إطفاء اشتعالاتك.

أضحك يا (زينب)، أتخيل نفسي رجلاً مهووساً، وكل شيء حولي يقول لي ذلك.

في غمرةِ كل هذا، يداهمني صوت آت من بعيد، اعتقدت لوهلة أني واهم وأن ذلك مجرد هذيان، لكن الجميع صاروا يخرجون من الخيام مسرعين، حتى تجمعوا في مكان واحد، أراقبُ ذلك المشهد من خلف الأغصان المتشابكة؛ حتى يأتي نحوي (سلام) يناديني مفزوعاً:

- أسرع يا (يوسف)،هنالك طائرة قادمة.

- وإن كانت؟

يجذبني من يدي بقوة حتى تساقطتِ يا (زينب) ولم أستطع الإبقاء عليكِ في ذلك الموقف.

كنتِ محشورةً ما بيني وبين أصابعي، أَتفقد وجعي فيكِ و أنتشي كلما سافرت باتجاه شرفتك.

سقطتِ وسقطتْ معكِ حينها مذكرتي التي لم أكملها.

نتجمع جميعاً في خيمة واحدة، صامتين، نتنفس ببطء؛ صوت الطائرة يقتربُ أكثر، وكلما اقترب، يزيد اقترابنا من بعضنا مغمضين أعيننا جميعاً، مستعدين للموت دفعة واحدة.

كم الخوف لذيذٌ يا (زينب)، يجعلنا نبحث عن سبيل للنجاتنا؛ لكن ماذا نفعل إذا لم نجد الطريق؟

كم الخوف أنيق، سرٌ من أسرار الحياة المثيرة؛ تماماً كما أنتِ سرٌ مدفون في ظمأ معاناتي.

كم هو بارع في إخراج حقيقتنا، وكم هو صادق معنا، نعم إنه صادق للحد الذي يجعلنا يقظين حتى من أنفسنا البائسة.

لا أدري كيف مرت تلك الليلة، لا أذكر أني نمتُ ولا أذكر أني سهرت كذلك.

كتيبتنا تتكون من خمس فرق، كل فرقةٍ تضم فيها عشرين جندياً؛ وجوه الأغلبية فيهم قد ذبلت وظهر عليها أثر التعب وقلة النوم.

حين يأتي موعد الطعام نتقاسم مواعيد الطهي وتقديمه كذلك.

وجباتنا الأساسية: الخبز الجاف مع الشاي، وفي أحسن حالاتنا: الأرز الأبيض.

(أنا) و(سلام) نتشارك الطهي وتوزيعه على أفراد فَرقتنا العشرين، ومشاركتهم كل أحاديثهم عن حبيباتهم وعن زوجاتهم وعن الموت الذي يتركهم في لحظاتهم الأخيرة.

اللحظة الأخيرة هي دوماً الفاصلة ما بين حياتين وصمتين وعتَمتين، هي اللغة التي تتقنها الأقدار أو ربما ما تبقى من العمر.

وحدي الذي أحتفظ بك سراً لقلبي، ولا أدع الريح تخترق ثقوبه كي لا تزهق عطرك الخالد.

هكذا أحملكِ، أحملكِ صمتاً بين نبضي ونفسي.

يمر أسبوع على خروجي من القرية، أسبوع وكأنه كل سني عمري التي ذهبت.

لم أعد أدري هل بقي لي عمرٌ أعيشه، كي تكوني أنتِ فيه ما ذهب وما بقي يا (زينب)؟

أشعر بالجوع خلاله كثيراً، أتلذذ بصوت معدتي وهي تحتج، وأتخيل أعضائي تقف أمامي وتهتف بإسقاطي.

الشعور بالجوع لذيذ، يمنحنا دفئاً، ومزاجاً غريباً، ونوعاً من الخمول الرتيب.

الحياة هنا يا (زينب)، لا تشبه تلك التي تعرفين، إنها جافة وحارقة، وكذلك قاسية، تماماً كبعدي عنك، أتدركين؟

هل يا ترى علمتِ بغيابي، وحاولتِ البحث عني؟

هل قال لكِ قلبكِ: لماذا لم تعد الشرفة تفتح؟

وأين اختفت الزهرات من النافذة؟

أتساءل في غمرةِ ما أنا فيه: كيف تقضين الأيام بعيداً عن رتابةِ وجودي؟

دعيني أخبركِ عن قتامة الوقت منذ ابتعدت عنكِ؛

أختفي هنا في دهاليز هذا الجبل الذي بات يرمقني كل يوم بعينين جاحظتين.

كلما ألمسه بيدي أشعر بأنه يريد أن يقول شيئاً، لكني أخاف فأبتعد وأسند ظهري إلى الخواء.

أبتلعُ شكوكي داخلي ولا أعيد النظر ثانيةً إلى ثقبه العميق، خشيةَ أن يجذبني فأغرق في العتمةِ فأبتعدُ عنكِ أكثر،، ولم أعتد عليه بعد.

لا أشعر بألفة تجاه هذه الصخور. الصخور رغم قساوتها، يخرج الماء من بين أضلاعها، ماؤها يشبهكِ ووحده يرويني.

الصخرة التي تقع على يمين الممر، صارت هي ملجئي الآن، كلما ضاقت بي أنفاس الفضاء توجهت إليها، أتكوَّمُ تحتها كشجرة خريفية، وأنحني لروائح النباتات التي شربتْ ريق الغيوم وكبرت هنا.

الجميع في المخيم يحبونني، و(سلام) يبتعد عني، لا أدري لماذا؟، لم يعد يجلس معي ولا يحكي لي عن مغامراته مع الشوق، كما كان يفعل قبل مجيئنا إلى المعسكر.

بين شباب فرقتنا، (أحمد) الذي يبلغ من العمر خمسةً وعشرين عاماً، يكبرني بعامين فقط.

الشمس قد تركت أثراً بالغاً على بَشَرته، كما أنها بدأت تؤثر فيّ كذلك.

التجاعيد باتت تظهر تحت عينيه وبات جلده رقيقاً للغاية.

(أحمد) شاب وسيم، فارع القامة ولديه جسد قوي ومتناسق، وشعره طويل، غير أنه أجْعد.

عندما أغيب خلف الصخرة يأتي إليّ ويجلس معي بصمت، يقلبُ التربةَ بغصن يجذبه من النباتات القريبة، ويبدأ بمسرحية السهو خاصته.

يشغلني حضوره عنكِ، حين أختفي أودّ الاختلاء بكِ، أتخيلكِ وأكتبُ لكِ؛ لكن (أحمد) لا يتركني أعاني لذة الوجع بمفردي.

الوجع في أحايين كثيرة يجعلنا نُزهر، يقيمنا، يصلح اعجواجنا، يهذبنا، ويجعلنا نتقن الصمت والكلام والبكاء باحتراف.

- ما بك يا (أحمد)؟ لماذا تصمت طويلاً؟

- ماذا عساي أقول، نضج الغصن وبدأ عوده يرق.

يجيب، ثم يسهو مجدداً.

أحاول أن ألفتَ انتباهه مجدداً بأخذ الغصن من يده، فيدير وجهه نحوي مبتسماً، فأضحك و أقول ممازحاً:

- لا بد أنك تشتاق لأحد ما. وأغمز له.

يبتسم ابتسامةً عابرة، يلف وجهه الصمت الكثيف، يقطب حاجبيه مجيباً:

- لا. ليس هنا لك مما تقصده، غير أن والدتي توفيت ولم أستطع حضور دفنها ولا النظر إليها لآخر مرة.

يطبق على كلينا السكوت والشرود، ينهضُ (أحمد) من جانبي، ينفض التراب عن بنطاله العسكري، ويضع قبعته على رأسه ثم ينزلق بصمت.

لا أدري كيف يمر الوقت هنا؟ النهار ليس له رائحة البخور الذي كان يزورني من نافذتك، ولا المساء يحمل لي عطر فمكِ وأنت تتنفسين عبر الشرفة، النهار عارٍ من لذةِ العيش من وجهكِ الذي كان يساقط في قلبي كل فصول السنة.

حتى الليل، لم تعد نجومه بالنسبة إليّ إلا كالبقع البيضاء على ثوب أسود، غاب وميضها وصارت باهتة، باهتة كهذا الأفق المندلع أمامي.

أنام كل ليلةٍ على حصيرٍ من أغصان النخيل،

و أتدثربذكرياتي التي لا تفتأ تربك راحتي،

حتى أنكِ لا تمرين في أحلامي، كما أُريْدُكِ.

أعدّ الأيام جيداً حيث مرّعليّ ثلاثون يوماً تماماً.

أستيقظ مبكراً خلسةً من رفقائي، آخذاً خبزةً واحدة وقنينة ماء معدني، وحقيبة يدي التي فيها أوراقي و أقلامي وشالكِ الذي لا يفارقني.

أهرُب مع شروق الشمس، متسلقاً الجبل حتى أصل إلى قمته، أجلس على صخرة ملساء، حولها ثقوب كثيرة للنمل.

أتناول قضمة من الخبزة وشربةَ من الماء، متأملاً الخيامَ أسفل مني وهي متراصة ساكنة، والشمس توزع دفئها على منحدرات هذا الجبل حتى تصل إلى بيوت النمل.

أتأمل النمل وهو يخرج حبات الحصى الصغيرة، وآخذ قضمةً من فمي وأرميها على تلك الثقوب.

ما هي إلا دقائق قليلة حتى يخرج النمل أعداداً كثيرة يسحب فتاتَ الخبزة إلى عمق مساكنه.

أرفعُ رأسي لأرى عصفوراً بلون أصفر صغير بحجم إبهامي تقريباً، لا أتذكر اسم النوع من العصافير الصغيرة هذه، لكنهم يطلقون عليه اسم (مصّاص الرحيق) يجلس فوق غصن لشجرة طَلْح كبيرة على يميني تماماً.

أتمنى لو أني ذلك العصفور، لأتيتُ إليكِ ووقفتُ على شرفتكِ؛ كم كان سيغريني ورد شفتيك!

يبدأ العصفور يرفرف، ويرسل لحن الانتشاء بصوته الصغير، أو ربما كان ذلك نداءً لقرينته، وبالفعل ما هي إلا دقائق حتى تأتي إليه ليذهبا معاً في رحابة هذا الكون.

كم يعترينا الخواء ونحن نسترجع في ذكرياتنا!

كل شيء نفقده، سواء كان بإرادتنا أم رغماً عنا.

أثناء ذلك يخترق سمعي من بعيد صوتٌ لطائرة قادمة باتجاهنا، أشعر بالقلق، وأنا أنظر أسفل مني فإذا بجميع الرفقاء يخرجون من الخيام ويتفرقون، خلف الصخور وبين الأشجار، وفي ثقوب الجبل الكثيرة، خوفاً من أن تُسقط الطائرةُ الموتَ على المخيم عن طريق الخطأ كما يحدث غالبا.

الموت غالباً يمنح مجاناً، وأنت تشرب كوب قهوتك، أو جالساً بباب منزلك، أو حتى و أنت تفكر بشراء هدية لحبيبتك.

صار الموت يمنح ببساطة لكل من يتعثرون به، وإن هربوا منه؛ ركض إليهم وتلذذ وهو يجذب أرواحهم نحو العدم، تاركاً وراءه قلوباً ضعيفة وأحلاماً قيد الإزهاق حتى إشعار آخر.

تمر الطائرة مسرعة وهي تأنّ في السماء كطير مذبوح، وما هي إلا دقائق حتى أسمع صوت انفجار عنيف، يهز الأرض من تحتنا.

يتصاعد الدخان من مكان ليس ببعيد عن ثكنتنا، يبعدنا بأمتار قليلة.

آخذ حقيبتي وأهرول باتجاه المخيم لتفقد الرفقاء.

(أحمد) ينتظرني عند مدخل خيمتنا، وعصافير القلق تحلق فوق رأسه وهو يجذب شعر شاربه بشرود ذاهباً بخطو اتهِ و آتياً.

- هي هي.. أين كنت لقد قلقت عليك؟ يبادرني (أحمد).

يمسكني بيدي، يجلسني على حجر صغير ثم يتنهد وهو ينظرُ في عينيّ قائلاً:

- لا تغب هكذا مرةً أخرى، لا تفعجني عليك يا صديقي، كما فعل رفيقي (توفيق) من قبل.

ثم ينكس رأسه ليبتلع غصته، ويتساقط الخريف من عينيه، فأمسك يده بقوة، شاعراً بما يعانيه من فقدان، ومن غير أن أقول له شيئاً، أربّت على كتفه و أقبّل جبينه المتعرق.

أنهض، و أتلفتُ يمنةً ويسرةً باحثاً عن (سلام).

الأرض تلتهم خطواتي وأنا أبحث عنه، أناديه مراراً، أُفتِّشُ عنه في الجوار، يشير إليّ (أحمد)، إنه في الخيمة، فأومئ له شاكراً وثمةَ فجوة تتسع داخلي.

أنا بحاجةٍ إليكِ، إلى ظللكِ ليبرد حرائقي، إلى أصابعك لتعيد ترقيع ثقوبي،إلى عينيكِ، لأضيع من خلالهما ولا أعود.

ليتكِ تدركين هذا الخراب الذي يحتويني، وأنا أبلتع غُصصَ مدينة كاملة.

هذه الثكنة التي نحن فيها، ما هي إلا وجع أحدثه غيابك وجعله موسماً لطيور الشجن، لكن أين الأغصان اليانعة التي تحط عليها طيورنا؟!

أدخل على (سلام) فأجده ممدداً وساعده تحت رأسه، يتأمل إلى السقف الذي تهزه الرياح.

- لم تخرج من مكانك إذن؟

-لا. ولماذا أفعل؟ إن كنت سأموت، لا أخاف.

- ما الذي يزعجك أخبرني يا (سلام)؟

- السماء هنا تمطر موتاً ولا شيء غيره.

يقول وهو يصلح من جلسته.

- لكننا تعاهدنا يا (سلام)، هلا تذكر؟

-تعاهدنا على أن نعيش الحب قبل الموت يا (يوسف)، لكن ليس هنا غير الموت، أين الحب الذي سنعيشه أولاً؟

يجيبني، بينما يشبك أصابعه في بعضها .

أنظر في عينيه طويلاً، كانت عيناهُ بلا بريق، ووجهه كالحٌ للغاية.

يقلّبُ هاتفه المحمول بين يديه، مقطباً حاجبيه الخاليين من الشعر.

-تزوجتْ بعد أن خيرتني بينها وبين واجبي.

يقولها وهو متجهم، وكفاه ترتجفان.

-لسوفَ تنال ذات يومٍ من تدرك قيمتك.. صدقني.

أقوله له مواسياً، ثم أنصرف و أتركه يتصفح الرسائل كما لو أنه طائر في قفص النهاية.

تخذلنا أحلامنا يا (زينب)، تتركنا في اللحظة التي نؤمن بها إيماناً مطلقا.

هكذا تعصرنا التجارب، لتجعل منا أناساً آخرين تماماً.. إما عقلانيين، وإما مرضى العقل.

أخرج من الخيمة، فأجد (أحمد) ينتظرني بجانب الصخرة الملساء، تلك الصخرة التي صارت تعرفني جيداً.

من كثرة جلوسي خلفها بت أشعر بألفة غيريبة تجاهها؛ لا أدري أذلك عائدٌ لتعودي عليها، أو لأني أكتبُ لكِ عندها كثيراً؟

يلمحني خارجاً، فيشير لي بكفه فأسرع إليه، ويسبقني ويجلس في مكاني، وأزيح الأحجار الصغيرة ثم أجلس قبالته.

- ماذا هناكَ يا (أحمد)؟

يصمت، ويعبث ببندقيته، ويخلع قبعته ثم يعيدها، مرتبكاً ولا يعرف من أين يبدأُ حديثه معي.

أدرك أنه و اقعٌ في مشلكة أوربما سمع أخباراً ليست جيدة.

-غداً سوف نخرج مع بعض الجنود، كي نؤمن المنطقة جيداً.. هكذا قيل لنا.

ثم يصمتُ وهو يزمّ شفتيه تارة، ويبللهما بريقه تارة أخرى.

- أهذا الذي جعلك مترّبكاً يا (أحمد)؟

- نعم يا (يوسف)، أشعر بأني لن أعود، ثمةَ شعورٌ يخبرني بأن خلف تلك التلة ينتظرني الموت. يقول بينما عيناه تلمعان.

- لا تهوّل الأمر يا صديقي، هي رحلة استكشافية وحسب، لا مواجهات، ولا شيء سيئًا.. لا تقلق.

- إن حدث لي أمرٌ يا (يوسف)، أرجوك، خذ هذا المصحف وضعه في مسجد المدينة، إنه هديتي لأمي التي لم أرها لمرةٍ أخيرة.

-أعدك يا (أحمد) أني سأفعل.

يبتسم ويقبلني في جبيني ثم يذهب، ليلتحق بالرفقاء.

ذلك اللقاء، هو آخر ماجمعني بـ(أحمد).

يعلم (أحمد) منذ البداية أنه لن يعود إلى المعسكر، علامات الوداع بادية على وجهه، ورعشة في كفيه عندما ناولني المصحف.

يذهب (أحمد)، ليلاقي خلف تلك التلة مصيره الأخير، إحدى الرصاصات الطائشة تنتظر بفارغ الصبر كي تستقر أخيراً في قلبه.

(أحمد)، صديقي النقي، الذي لم يكن في قلبه هَمٌ سوى قهره على وفاة والدته الذي أثر فيه كثيرا.

تجهز للانطلاق، يرتدى بزّته الو اقية، ويلف شعره إلى الخلف، ويرش الكثير من العطر الذي أحضره صديقه من المدينة.

قبل صعوده للسيارة، تلتقي عيوننا، نبتسم، نعم نبستم، ثم تنطلق السيارة مسرعة.

أرى (أحمد) للمرة الأخيرة، وهو في صندوق مستطيل، بجانبه قبعته، ملفوف بالعلم الوطني.

كان موقفاً مراً أن أرى صديقي ممدداً هكذا.

كان العطر لا يزال في بزّته، فآخذها معي وأخبر الأصدقاء أني أريدها معي ذكرى لقائنا الأخير.

أقول له وهو ممدّدٌ في الصندوق، وعيناي تذرفان الحسرة:

لم تمت يا صديقي، سوف تذهب لتلتقي بأمك، سوف تكونان معاً هناك حيث تشاءان.

(سلام) يقف بعيداً، لم يقترب يجلس على الأرض وكفاه في خديه، عيناه كانتا ثابتتين في الأرض، بينما رفقاء (أحمد) يحملونه ليضعونه في مؤخرة السيارة ليذهبوا به إلى مقبرة الشهداء في المدينة.

أذهب إليه، ينظر إليّ ثم يشيحُ بوجهه، أقف في مكاني من دون أن أقترب، ينهض (سلام) متجهاً نحوي، أفرد ذراعيّ، ظننتُه سوف يحتضنني، لكنه لم يفعل.

- ها نحن نموت قبل أن نعيش الحب يا (يوسف).

رمى كلماته في وجهي ثم تزحلق باتجاه الخيمة.

كنت مكسوراً يا (زينب)، لم أستطع الصراخ، ولا حتى الكلام.

بقيتُ متبلدَ المشاعر، الأرض حولي تدور، وكأن ثقباً سوف يبتعلني نحو العتَمة.

أرى الجنود يقفون صفوفاً كي يودعوا صديقي (أحمد)، أتيقن حينها أنني أفقده للأبد.

أضم بزّته إلى صدري، وأشمها وأذهب إلى خيمتي الصغيرة، أترك البزّة بجانب المصحف، وبجانبهم أترك رئتي.

بعدما ذهب (أحمد)، بت أومن الآن أننا في حرب، وأننا لم نأتِ هنا للنزهة، بل جئنا لنموت، لكننا كلما متنا عدنا من جديد بطريقة ما.

يتساقط المطر، يجيء برائحته ليغسلَ الأرض، ليمحو بقع الدم التي تروي الأرض، وهي تتسرب من جرح (أحمد) والكثير من (أحمد) صاروا غابات وأسواراً.

تمر الحياة كما هي، لم يتوقف الزمن ولم تنقلب الدنيا، نعتاد غيابه سريعاً، الحزن الذي أعيشه ليومين، يتحول إلى صمت طويل، الأوراق باتت هي القلوب والأفواه التي تحدثني وأحكي لها.

أترك تلك الصخرة الملساء، لأنها تذكرني به، وها أنا الآن أقف تحت ظل شجرةٍ طويلة، فاردة أغصانها المتشابكة، في كل غصن أوراق كثيرة وطويلة، ولها رائحة لا تشبه أي رائحة شممتها من قبل.

صدقيني،لا أعرف اسم هذه الشجرة ولم أرها من قبل إلا عندما كنت في القرية؛ ورغم ذلك لا أعرف اسمها.

هل تعلمين أنها تشبهك يا (زينب)!

أجلس تحتها لبعض الوقت، أقلبُ في أوراق هذه المذكرات التي أكتبها لكِ كل يوم.

أكتبُ لكِ الآن عن (أحمد)، صديقي الذي لم أعش معه سوى شهرين ونصف.

لم يذهب (أحمد) للحرب، كان ذهابه روتينياً لحفظ أمن المنطقة.

يخبرنا الأصدقاء أنه ذهب ليلتقطُ الأزهار العالقة، في غصنٍ مرتفع لشجرة ليلك طويلة وحينها تداهمه رصاصة وتخترق بزّته العسكرية.

تخذلنا حتى بزّاتنا ولا تنتمي إلينا في وقت الحاجة إليها.. هكذا فعلت بصديقي المسكين.

تخذله في حين ظن أنه يرتدى البزّة الو اقية.

ألسنا أولى بأن نشفق على أنفسنا، إذا لم نفعل؛ فكيف سننتظر الرحمة من غيرنا؟

ها أنا أكتبُ لكِ الآن، و أنا أتفحصُ بزتي التي من المفترض أن تحميني؛ على العكس تماماً صارت تصيبني بالخوف.. بت أخشى أن تغدر بي كما فعلت بصديقي (أحمد).

دوماً ما يأتينا ما نخشاه من الأماكن التي نؤمن بها.

نطوي جراحنا، ونرمي قلوبنا المنكسرة، ونرتب في صدورنا أماكن جديدة للأمل.

حتى ونحن بلا أمل، لكننا نعتصره من قلب المحن.

نغرس صلاتنا في كل جهة لتنبتَ أمانينا من جديد.

بعد أيام قليلة منذ رحيل (أحمد)، نجتمع في الصباح مع قائد الكتيبة، ليخبرنا بأنه يتوجب علينا مغادرة ذلك المكان والتوجه إلى مكان آمن.

وجهه لا يبشر بخير، عيناه الصغيرتان تقول ذلك أيضاً.

- نحن هنا فقط لنحمي حدود البلاد، ولم نأتِ للحرب يا يا سيدي.انطلق صوت (سلام) بغلظة.

- نعم.. لكن إذا توجب الموت، فعليك أن تموت.

يقول الضابط وهو يضع قبعته على رأسه.

- أموت وحسب، هل جئنا لنموت؟

أدفع من كان بجانبي، حتى أصل إلى المكان الذي يشغله (سلام)، وأمسك بيده وأرغمه على الصمت.

يجذبني بقوة لأترك يده، وأُصر على إسكاته، بينما يتعالى صراخ الضابط وهو يخبرنا بأننا سنعود لمنازلنا بعد شهرين من الآن.

بضغط (سلام) على يدي، ونـنظر لبعضنا تفاؤلاً بما قاله الضابط.

- والآن انصراف. يقول بينما عيناه مصوبتان على (سلام).

أمسك بيده، نذهب حتى نتوارى خلف الصخرة الملساء التي كان آخر عهدي بها وداعي لـ(أحمد).

- أجننت يا (سلام)، ما الذي كنت تظن أنك فاعله؟غاضباً قلت له.

يحدق في عينيّ متجهِّماً، ويقرب سبابته من وجهي، ويسألني:

- كم مرة تمارس العادة السرية؟ هل تتخيل جسد حبيبتك في ليلة من الليالي هنا؟ أو أنك تستمني و أنت تمسك ببندقيتك؟

- أجننتَ يا (سلام)؟ ما هذا الكلام؟

- نعم يا (يوسف)، هل تعلم بماذا كان يحلم (أحمد) قبل موته، كان يتخيل الليلة التي سيفض فيها بكارةَ عذراء هي حبيبته، وقد لفظته الحياة قبل أن يفعل.. على من الدور؟ أخبرني.

يترك (سلام) يدي ويركض باتجاه خيمته، قبل دخوله يقف، يلتفت نحوي ويقلبُ كفيه ثم يتوارى. لقد قال كلاماً جعلني أسأل نفسي أسئلةً غريبة، و أفكر بأمور جنونية.

في خضم ما أنا عليه نسيت أن هناك شيئاً يسمى جنساً، أو عادةً سرية، أتذكر أني كنت أُمارسُ العادة السرية ولمرات قليلة عندما كنت أحدق فيكِ و أنت تمشين على الرصيف، ذاهبة إلى السوق.. أو حين أغيب تحت دش بارد وأدعك جسدي بالصابون.

هكذا أفكر الآن و أنا في هذا المكان المقفر والمليء بالموت.

تمرُّ على أحدنا أيام لا يفكر فيها برغباته، طالما أن هنالك سبباً كبيرا يشغل حيزاً ليس بالقليل من حياته وتفكيره.

أعتبر كلامه بأنه نابع وحسب من شاب تتقد نفسيته وتتعب، خاصة بعدما يعيش تجارب حب لم تكن موفقة، لمجرد أنه جندي مر ابط في ثكنته.

لم تقبل إحداهن أن تكمل الطريق معه ومنحه قوةً روحيه؛ لم تكن إحداهن على استعداد في أن تعيش تجربة الخوف والقلق كلما خرج (سلام) خارج البيت، أو تقوم بانتظاره لأشهر طويلة وهو يؤدي مهتمه خارج نطاق المدينة وفي الجبال وعلى الحدود.

أدرك جيداً الحالة التي وصل إليها (سلام) من التوتر والقلق، وخصوصاً بعد وفاة صديقنا (أحمد)، رغم أن علاقة (سلام) بـ(أحمد) لم تكن مترابطة كثيرا؛ إلا أنه تأثر من فقدانه بشكل كبير.

تغيرت أحوال (سلام) كثيراً، صار قلقاً أكثر ويقضي معظم أوقاته بمفرده، حتى أنا لم يعد يجلس معي كما كان يفعل، ولم تعد بيننا تلك العلاقة الوطيدة.

لكني كنت أعذره دوماً ولا أُمارسُ عملية الضغط عليه، وكنت أكتفي بنفسي وبكِ.

الحياة متعبةٌ يا عزيزتي، وتحتاج منا أن نقف أمامها أقوياء وسليمين، فمن طبعها أنها إذا وجدت الضعيف دعسته أكثر.

حاولتُ أن أوصّل هذا المعنى لصديقي، لكنه لم يكن بحالة تؤهله أن يسمع نصائحي، حتى أنه نسي عهدنا الذي طبعناه في قلوبنا بأن لا نَفْتَرِق وأن نعيش الحب قبل الموت معاً.

لكنا غدونا الآن متنافرين، لا نجمتع كثيراً ولا نتحدث كالسابق، ولم تعد تجمعنا سوى؛ هذه البزات وهذه البندقيات.

الأيام في هذا المعسكر تمر رتيبةً للغاية، لا نصنع هنا شيئاً غير الانتظار والتحديق في السماء، ومر اقبة العصافير كيف تبني أعشاشها وكيف تطعم صغارها، نكتفي بالصمت الذي لا يكاد ينتهي، حتى يبدده مرور طائرة، أو دوي لقصف بعيد على جبال وأماكن مكشوفة.

نمارس نفس الهروب، حتى لا يداهمنا الموت الغير مقصود.

كم هو الإنسان مجنون، كم هو غبي، كم هو جاحد لهذه الطبيعة، ولهذه الأحلام ولكل شيء حوله!

أنظر إلى بندقيتي الر اقدة بجانبي، أدقق النظر فيها جيداً، كيف أتقنَ صنعها حتى صارت بهذا الشكل، وبضغطة واحدة تقتل وتهدر دماً.

أدير رأسي مبتسماً لأرى حقيبة يدي، ونصف ورقة خارجةٌ منها.

أتساءل: ماذا أفعل هنا؟

أجيب نفسي: أنت هنا في مهمةً لتحمي حدود بلادك فحسب، لم تأتِ للموت ولا ليموت أحد.

أنظر في جلد يديّ، كيف أنه قد اغمق ورق وبرزت العروق، أتحسس وجهي، كم يزعجني ملمسه الخشن!

الجميع هنا صار بلون واحد، وبنفس الهيئة الجلدية الهشة.

هكذا تمنحنا الطبيعة هنا تجانساً وتقارباً، لنشعر جميعاً بأننا في مرتبة واحدة، وبأننا جميعنا منهكين ومنهمكين، نعيش على نفس الشاكلة.

بينما أنا أجلس أمارسُ طقوسي في التأمل والكآبة، وغالبا في الكتابة إليكِ، فإنها من الأولويات التي لا أستغني عنها مهما كان وضعي.

في تلك الأثناء ينهضُ جندي من فرقتنا؛ يحمل كيساً كبيراً، ثم يقف على رؤوس الجنود يصرخ بهم:

أيها الرفاق، أيها الرفاق،هلمّوا.

أسنانه الأمامية بارزةً للغاية، وشفته السفلى مقسومة إلى نصفين، أظنه يعاني من تشوه يسمى (الشفة الأرنبية) هكذا يطلق على هكذا حالات كما كنت أَسْمَع.

قصيرٌ ممتلئ، وعيناه صغيرتان وحادتان جداً.

يصمت حتى يجتمع الجميع، ويحضر من كان مرمياً خارج الدائرة.

نتجمع كلنا، ونشكل دائرةً من القبعات والبزات، البنادق أخذت مساحتها منا فلا تلتئم صفوفنا تماماً.

الجميع يتساءل، أصواتهم تتعالى، وكلماتهم تتداخل في بعضها، و أنا منشغل بالبحث من بينهم عن (سلام).

لم أجده منذ الصباح، ولم ألمحه في المخيم.. ينتابني القلق لكني أتمالك جأشي.

- هدوء يا رفاق، هدوء. يقول الجندي.

يفتح الكيس الذي بحوزته، ويخرج منه مظروفات.

- رسائل من أسركم. يقول مبتسماً.

بينما عيون الرفاق تلمع وهو ينادي بأسماء من وصلتهم الرسائل.

بالطبع لم أكن أنا من بين تلك الأسماء، ولم يخطر ببالي ولو لمجرد التفكير بأنكِ قد ترسلين لي، لأنك ببساطة لا تعلمين أين أنا، ولا لماذا اختفيت فجأة.

يشرد تفكيري بعيداً حتى أسمع الجندي المسؤول عن تسليم الرسائل، ينادي باسم (أحمد).

كيف يحدث أن يجعلك القدر في مرماه هكذا؟

كيف بإمكانه أن يجعلك ركيكاً تعصرك أحزانك لدرجة الصمت بحسرة؟

هذا تماماً ما كنت أشعر به واسم (أحمد) يتردد بصوتٍ الجندي الغليظ.

أتساءل: من الذي سوف يرسل لـ(أحمد) رسالة؟

أرفع يدي مشيراً بأني سأستلمها، بينما ينكس البقية رؤوسهم، أمد يدي لآخذ الرسالة ولم أجرؤ لأفكر ما قد يوجد في داخلها.

كان (أحمد) ينتظر رسالة من أحد أقاربه بفارغ الصبر كما أخبرني بذلك قبل يومين من وفاته.

أبتسم ساخراً من هذه الحياة و أنا أقلبُ المظروف وأدسه في جيبي ببطء.

من بعيد ألمح (سلام) يأتي باتجاه المسؤول عن الرسائل، مقطّباً حاجبيه، وتثير خطو اته الغبار ليصنع حاجزاً بين التقاء عيوننا.

أنكس رأسي والأسئلة تدور فيه عن ماهية الرسالة خاصة (أحمد)، و في الوقت نفسه أشعر بمشاعر متضاربة، سببها أنتِ يا (زينب).

يتسلم (سلام) رسالته ويسرع باتجاه خيمته.

منظر الجنود وهم يتسلمون الرسائل أشبه بمن يتقي بالأمل لسعات الحنين.

كلٌ يهرع لزاوية، أو صخرة، أو ظل شجرة؛ والبعض يفضلون قراءتها في خيمهم بمفردهم.

آخذ بعضي و أتجه صوب خيمتي، تماماً كما فعل البعض، أودّ الاختلاء بالرسالة وقراءة ما جاء فيها رغم الحزن الذي يشتعلُ بقلبي.

في زاويةِ الخيمةِ أجلس، أتنفس بعمق، أدخل كفي إلى جيبي وأسحب المظروف، إنه شعورٌ مختلفٌ بالمعاناة، خاصةً وأن عينيّ بلا قصد وقعت على بزةِ (أحمد) والمصحف الذي تركه أمانة عندي لأجعله صدقةً جارية في مسجد قريتي.

كل شيء الآن اجتمع في خيمتي، أشياء (أحمد)، وروحه التي لم تخرج من مخيمنا وظلت تر افقنا وتر اقب ماذا نصنع بعده.

أفتحُ المظروف ببطء وقشعريرةٌ تتملكني، الورقة بلون أصفر وعلى حو افها نقوش من أصل الطباعة، قصيرة وعليها كلمات عريضة، خمسة خطوط وتوقيع وقلبٌ في الجهة المقابلة له.

"(أحمد)، المدينة بعدك مظلمة ياعزيزي، أعلم أنك حزين على فراق والدتك، لكني هنا بانتظارك، و أنا أعد الأيام الرتيبة حتى تنتهي وتعود إلينا بسلام، عد إلينا بسلام.

المخلصة: ناريمانا".

أنهي قراءة الرسالة، أعيدها إلى المظروف وأضعها بجانب البزة والمصحف.

ألقي بجسدي على الفراش المصنوع من حصير النخل، الذي لا يكاد يتسع لي، تضيق الزو ايا وأشعر بأني بحاجة لأن أغيب في نومة ربما أصحو بعدها أفضل.

أتساءل في غمرةِ حزني: ماذا ستفعل ناريمانا حينما تعلم بموت (أحمد)؟

الأجوبةُ غالباً ما تكون قاسية على أحدنا لأن الو اقع دوماً يكون صعباً للغاية.

لم أجهد نفسي بالتفكير فيما سأفعله لاحقاً، لكنه كان لا بد عليَّ من إخبارها برسالة عن حقيقة ما حدث لـ(أحمد).

رغم فداحةِ الأمر غير أنه من اللازم فعل ذلك.. ومن الجيد أنها تركت عنوانها ورقم هاتفها.

الجنود الذين في المخيم لا يسمح لهم كثيراً باستعمال هو اتفهم المحمولة، الرسائل المكتوبة هي السبيل الأمثل للتواصل مع الأقرباء وغيرهم.

أتذكر ذلك اليوم الذي كنت فيه مع (سلام) في خيمته، إذ كان يقلبُ في يده هاتفاً محمولاً. لم أسأله لماذا هو بالذات يمتلكه، لكني عرفت بعدها أنه كان يستخدمه سراً ولم تكن تلك الرسالة التي جاءت سوى تمويه كي لا ينكشف أمر هاتفه.. ويعاقب على مخالفة ذلك.

رغم الأسى الذي يملأني بعد قراءتي للرسالة خاصةِ (أحمد)، أشعر أني أبتسم حينما تذكرت (سلام).

(سلام) ابن المدينة العاشق والذي لا يترك فرصةً لقلبه ليبقى فارغاً، فإما أن يملأه حباً، وإما حزناً؛ وقد يجتمع على أحدنا كلا الأمرين.

وفي أحايين كثيرة نحتاج إلى أن يكون لدينا أسرارانا الخاصة، نستمتع ونحن نخفيها عن الآخرين.

أضع كفي على قلبي مبتسماً و أقول: أنا كذلك لدي سري الخاص بي.

ربما لم يفكر (سلام) بالعقوبة التي فرضت على من يوجد لديه هاتف محمول. أهم بالذهاب إليه وتذكيرهِ، لكني أتراجع حتى أجد فرصة سانحة أستطيع من خلالها فتح هذا الموضوع مع (سلام)، مدركاً استشاطة غضبه.

من بين حزني و ابتسامتي، من بين وجعي وكآبتي، تطلين أنت وتعبرين فصول صمتي الكثيرة، صرتُ بلاداً يا (زينب)، بلاداً شاسعة يسكنها الفقد والشوق، ويسكنها الحنين، الحنين الذي صار طيوراً تبحث عن السلام ما بين نافذتي وشرفتك.

يتسلل الليل إلى خيمتي كلص، و أنا ما أزال أفكر ب(سلام) وصديقةِ (أحمد) "ناريمانا".

يتقن جيداً هذا السواد الكثيف سرقةَ الوقت ومنحه بعداً آخر، الليلُ جليسٌ رتيب لا أحبه، يمنح المكان وحشةً خالصة.. عندما يبدأُ الكون بالدخول تحت سكونٍ من النعاس؛ تكون عيوننا في هذا المخيم أكثر اتساعا.

النوم صديقٌ فارقته منذ جئت إلى هذا المكان، منحني الليلُ هنا أحاسيس مختلفة، وأعاد لي ذكرياتٍ كثيرةً حاولت جاهداً تناسيها.

لم أخبركِ ياعزيزتي؛ أن والديَّ توفيا في ذلك الحادث أثناء توجههما إلى القرية في منتصف ليلةٍ بلا قمر، كنت ما أزال في سن المراهقة عندما وقع الحادث، مقيماً لدى صديق والدي الضابط (سليم) والذي تكفل بعدها برعايتي وتخفيف ذلك الوجع عني، وجعلني ألتحق بالجيش كي أبقى معه.

لم أرَ والديَّ للمرةِ الأخيرة، ولم يترك لي العم (سليم) خياراً في رؤيتهما.

أخبرني بأنه لا يجب عليّ أن أجعلهما يتعذبان حين يسمعان صوتي.

أخبرني بأن الجثث تدرك من اللمسة حجم حزن من يلمسها، وبأن أذني الميت تسمع جيداً وقع الخطوات، وتميزُ خطوات من يحبها.

ما زلتُ إلى الآن مؤمناً بما قاله لي العم (سليم)، لذلك حين علمتُ بأنه توفي أثناء قدومي الأول إلى المخيم؛ لم أبكِ ولم أحزن حتى لا يعذبه وجعي على فراقه.

الليل بالنسبة لي، ذاكرة مزدحمة بالفقدِ وبالرحيل.. حتى و أنا منغمسٌ في همي؛ تماماً كحلوى في العسل: أستحضركِ بكامل هيأتك.. مخففةً عني سطوة هذا السواد وشعوري بالتلاشي.

أقتلع عدة شعيرات من ذقني و أقول:

صديقي (سلام) من جهة، و"ناريمانا" من جهةٍ أخرى، و أنت كل الجهات المتبقية لي في هذا المكان المقفر الكئيب.

تنامين يا (زينب) بصمتكِ بعيداً عني، كرسالة معجونة بالغبار والطين، تتدحرجين في أعماقي، ثم تنزلقين كقطرة، و أنا كالمجذوب جعلت من قلبي وعاء لكل ذلك.

تحتضرين يا (زينب)، بينما أنا أعود للحياة من أجلك كلما داهمني الموت.

ثم ما ألبث فأبدو كفقاعة هربت و انكسر بريقها على جدار الو اقع.

هذه التخوم باتت تعرفني أكثر منكِ، بل صارت الصدر الأحن عليّ.

مضى شهران و أنا أنزف عمري في أقداح الوَحدة، اسودت بشرتي وتجمعت التجاعيد حول عينيّ، وبات شكلي مرهقاً للغاية.

قبلتكِ مرةً في الحلم، نسيتُ الآن طعم شفتيكِ ولم أعد أتذكر سوى هروبكِ من أمامي بعدما أهرقت عمري بقبلة لم تكتمل حتى في المنام.

أكانت تلك القبلةُ خطيئتنا يا (زينب)، أو أني كنت الخطيئةَ ذاتها، وهل سوف أحظى بتقبيلك حقيقة؟

حتى في الأوقات العصيبة يا (زينب) لا أنساكِ، أتعلمين؟

أظل أتذكركِ وأنا ممسكٌ ببندقيتي المتعجرفة التي لا تتقنُ سوى الصراخ؛ الصراخ بلا هدف، أوجهها باتجاهِ السماء لتفرغ كلما في بطنها من غضب؛ ثم أعيدها وأعلقها على كتفي.

لا أدري كم مرةً متُّ!، كم مرةً بكيت وضحكت!، كم مرة جرحت دون أن يجد الموت إليّ سبيلا!

أنجو كل مرة، لأنك السر الذي أخفيه ما بين قلبي وبزتي..

الموت يا (زينب) حياة أخرى، نعمة نسيناها، هو منحة السماء لمن غدت الحياة لهم مجرد بؤس.

الموت هو السلام الذي تمنحه الصدف للذين تعبوا من السير والتعثر.

قال لي والدي مرةً ونحن جالسون على سطح المنزل:

الموت، يا بنيّ، سرٌ مثير لا يدركُ كنهه إلا الذين يرون صفاء أرواحهم، هو الخلاص من السجن الكبير الذي نعيشه في هذه الحياة؛ الحياة سجنٌ يا بُني، والموت حين يأتي؛ إنما هو خلاصنا من أسرنا، أسرنا الذاتي لأنفسنا.

سألته: والذين يتسببون بموت غيرهم يا أبي؟

يزم شفتيه ثم يقول: إنما هم ذلك السبب الذي به يفك الله أسر من كتب عليهم الموت على أيديهم، وهم سوف يفضون إلى سجنهم الأبدي في عتمة أنفسهم.

ثم يصمت بينما تنهيدةٌ تصعد من صدره.

ابتسمتُ حينها.. لا أدري لماذا ابتسمت، كان أمراً مربكاً أن أبتسم هكذا، بينما أبي يحدثني.. أظن أن الطفل الذي كان يسكنني هو من كان يزهو داخلي ولست أنا.

رمقني والدي بنظرةٍ حانية شعرت بدفئها، ثم انزلق باتجاه المسجد، و أنا بقيت أفكر بكلامه حتى أني لم ألحق به رغم أنه أخبرني بأنه سينتظرني.

صباحاً أفيق من نومتي على أصواتِ جلبةٍ في الساحة، لم أجد الوقتَ لأغسل وجهي أو حتى أقوم بتمديد عضلاتي وفرك عينيّ.

ولغسل وجهي كان يلزمني الذهاب إلى الخيمة الكبيرة، وجلب الماء من هناك ووضعه في طاسةٍ عميقة ثم الانتظار قليلاً، حتى تتجمع علقات صغيرة وسطها فأقوم بإزالتها غرفاً بكفيَّ.

أحجم عن الفكرة تماماً و أكتفي بما أنا فيه.

أجدني أقف بباب خيمتي، هيأتي لم تكن ملائمة والغبار قد التصق بمساحات واسعة من بزتي، وصارت رائحتي خليطاً من الغبار ور ائحة جسدي.

لقد وجدت البكتيريا تحت إبطيَّ وطناً ملائماً للتكاثر.

أنظر أمامي،عددٌ من الجنود يشكلون دائرة؛ و(سلام) وصديقه المقرب (فتحي) يتعاركان، ما بين ضاحكٍ ومتحسر، وكأنني أرى أمامي حلبةَ مصارعة حقيقية.

- أعد لي ما سرقته يا (فتحي). يقول (سلام) بينما هو ممسكٌ بكلتا يديهِ ياقةَ (فتحي) .

- عن ماذا تتحدث؟ ليس معي شيءٌ يخصك.

يصرخ (فتحي) محاولاً الفكاك.

أجد نفسي وقد اندفعت مخترقاً الدائرة، ممسكاً بيد (سلام) محدقاً في عينيه، مقطباً حاجبيّ صارخاً: ماذا تفعل يا (سلام)؟ إنه صديقك يا أحمق.

ينخزني (فتحي) بخاصرتي بيده اليسرى، ويده الأخرى ممسكةٌ بيد (سلام).

- ماهذا يا (فتحي) ؟ أصرخ في وجهه.

يغمز لي (سلام) بعينه لتزداد حيرتي ويزيد ارتباكي من كليهما.

يترك (سلام) ياقة (فتحي)، ناظراً إليّ باستغراب، والأمر مربكٌ للغاية، فـ(فتحي) يقوم بنخزي في خاصرتي؛ و(سلام) يغمز لي!

أبتعد عنهما خطوتين، ويتراجع الجميع عن الدائرة وينفضون.

مسرعاً أتجه نحو الصخرة الملساء غير ملتفت، أتوارى خلفها مقرفصاً، أفكر بهذا الذي حدث.

بعد وقتٍ قصير يلحق بي (سلام) و(فتحي) ويجلسان أمامي مقرفصين كذلك.

ينظران إلى بعضهما ثم ينفجران ضاحكين.

- ماذا حدث لكما، الأول ينخزني والآخر يغمز لي، والآن تضحكان، ما الذي يجري؟ أفهماني.

يجذب (سلام) غصناً أخضر ثم يكسره نصفين وهو محدقٌ في وجهي قائلاً:

- نحن نفكر بالهروب يا صديقي.

- ماذا؟ هروب! أجننت؟ أصرخ في وجهه.

أما (فتحي) فيكتفي بهز رأسه بالإيجاب.

- ما الذي حملكما على ذلك؟

يجيب (سلام) وهو منكسٌ رأسه، يرسم خطوط متشابكة على الأرض:

لقد جائتني رسالة نصية، مفادها أني سأخسر (مرام) إذا لم ألحق بها، سوف يزوجها والدها من رجل مسنٍ لكنه ثري.

- هل تعلم أنك في مهمة مقدسة ياعزيزي؟

- أي قدسيةٍ و أنا سأخسر حب حياتي.

يصمتُ قليلاً ثم يضيف:

لو أنك أحببتَ يوماً يا (يوسف)؛ لفهمتني.

يرمي بالغصن من يده ثم ينهضُ حتى يتوارى في خيمته.

يبقى (فتحي) جالساً مبتلعاً لسانه، إلا من نظراتٍ مظطربة لم أتبين مغزاها، و أنا الذي أتقنُ قراءة العيون جيداً، هذه المرة أفشل.

- و أنت ماالذي يدور في رأسك يا (فتحي)؟

يجيبني بصوتٍ خفيض: والدتي متعبة، وأحببتُ أن أذهب إليها، أخشى أن تموت فتصير حالتي مشابهة لـ(أحمد).

يضيف:

غداً سوف نخرج في دورية، وتلك فرصتنا للهرب.

- هل أنتما في وعيكما؟ هل تدركان أن واجبكما يحتم عليكما التضحيةَ بكل شيء؟

- حتى أمي يا (يوسف)؟

- نعم حتى أمك يا (فتحي) .

يصوب نظراته بحدة إليّ، وينهضُ وهو يتمتم: لكنها أمي أمي.

ثم يختفي خلف الشجرة الطويلة ما بين المخيم والجبل.

أتنفس بعمق حتى أشعر بطعم الغبار في حلقي، أخلَعُ قبعتي، أتركها بجانبي، أحك شعري، مشتتاً لا أجد حلا لهذه المعضلة التي سيقع فيها صديقيَّ.

بينما أظافري داخل شعري، أتذكر حمامي الخاص، والماء الدافئ، والصابون.

مرت فترة طويلة لم أغبّ تحت دشّ بارد أو ساخن لا يهم، المخيم هنا حمام كبير مفتوح، والنظافة فيه غير متاحة غالباً.

أنهض، أسير ببطء لا أدري وجهتي، يتردد صوت (سلام) في رأسي صدىً متباعد، وهو يلقي عليّ بكلماته الثقيلة بأني لم أحب ولم أعشق يوماً لأشعر به.

ليته يعلم ما الذي يخفيهِ هذا القلب من فقدٍ وحزن كبيرين! لكني لم أبح بسركِ لأحد غير مذكراتي.

أشغلت موضوع هروبهما في رأسي مساحات فارغة من التفكير المفرط والحيرة.

أتساءل: ما الذي يتوجب عليّ فعله، ماذا بوسعي أن أفعل؟

وجدتني واقفاً قبالةَ خيمةِ (فتحي)، أقف لبرهة أتلفتُ حولي لربما أجده، وإذا به يخرج من خيمته فجأةً ليصتدم بي.

- متى دخلت يا (فتحي)؟، قبل قليل رأيتك ذهبت باتجاه الجبل؟ أسأله وأنا ممسكٌ بقبعتي في يدي، أحركها يمنةً ويسرة.

لا يجيبني، يعود للداخل لأجدها فرصةً مناسبة للحديث معه.

يجلس في زاويةِ الخيمة مقرفصاً لأجلسَ أنا أمامه متأملاً ملامحه ومنتظراً حديثه.

يبدو مرتبكاً، وعلى وجهه آثار لحزن دفين.

ملامحه تذكرني بـ(أحمد) حين يصمت وتفيقُ الغيوم السوداء لتغطي وجهه.

- ماذا تريد؟ يسألني.

- أريدك أن تثق بي وحسب.

يبتلعنا صمتٌ لبعض الوقت، أغير على إثره جلستي وأجمع قدمي تحت مؤخرتي و أفتح أزرار بزتي لشعوري بحرارة زائدة وتعرق مفاجئين.

- غداً سأختفي سأذهب إلى أمي.

- ولماذا الهرب، خذ إذناً لينظروا في أمرك، أنت هنا لتحمي حدود بلدك، ولم تأتِ للنزهة ثم تقرر الهرب ببساطة.

يقطب حاجبيه مستنكراً، ويفك أزرار بزته، ويخلعها ثم يقوم برميها جانباً، ويقتربُ مني قائلاً:

- أدرك تماماً ما جئتُ من أجله، ولكن القرارات واضحة "لا عودة إلى الديار إلا بعد قضاء عام كامل هنا".

ثم يرمي بجسده النحيل على الحصير المغطى بقماشٍ بلون بني.

- هل كُنتَ ممن تسلموا الرسائل في اليومين الماضيين؟ سألته.

- نعم. وأعرف أنك ستخبرني عن عودة البعض بعد شهرين من الآن.

- إذن، لِمَ لا تنتظر؟ قد تكون منهم.

بغلظة:

- وإن لم أكن منهم، ماذا سأفعل حينها؟

- حينها فقط سنجد لك حلاً يا (فتحي) .

- وإن لم أدرك أمي حتى ذلك الحين؟

ثم يشيح بوجهه، يغمض عينيه، لأجمع نفسي وأخرج من خيمته كما دخلت، فارغاً إلا من الخيبة.

لم أستطع إقناعَ (فتحي)، ولم أجد مفتاحاً يغلق باب ذلك القرار الذي اتخذه مع (سلام).

الحياة مجدداً تضعني ما بين خيارات صعبة، إمّا أن أبلغ عن هذا الجنون من قبلهما فأخسرهما كصديقين، وإما أن أصمت و أنا ممسكٌ قلبي؟

أثناء ذلك، أحدهم يذهب ليؤذن لصلاةِ الظهر على صخرة مطلة، وحرارة الشمس تشتد، والمطر لأسبوع لم يهطل، وروائح الأرز مع البصل تفوح بشدة من خيمة الطهي، وأنا غارقٌ حتى ترقوتي بهمٍ ثقيل.

أحار، ماذا أفعل وإلى أين أتجه الآن؟

لم تكن فكرةً جيدة لو عدت إلى خيمتي، أستبعد من رأسي فكرة الذهاب إلى خيمة (فتحي) تماماً، الصمت الآن هو كل ما أحتاجه كي أجد حلاً مناسباً.

عندما أجد نفسي في معضلة، تأتين يا (زينب)، توقدين في صدري عتمات كثيرة، تجعلينني رجلاً مهندماً من الداخل، وتتسعين حتى تكادين تقفزين من ضلعي.

أشعلي عتمةَ رأسي بهذا الحضور، أوقديني لأحرق كل هذا الوجع الذي يغطيني كأوراق صفراء باهتة.

أوجِديني، فإني بدون تذكرك لا أتقن الحياة.

في تمام الساعة الخامسة فجراً، أفيق على أصوات لخَشْخَشة بالقرب من خيمتي.

يبادرني خيالي بأن ثمةَ أحدٌ يريد الدخول،وعلى الفور يلمع وجه (فتحي) و(سلام) في رأسي.

أنهض مسرعاً، وإذا بي أجد (فتحي) يستلقي، و(سلام) بجانب رأسه.

أتوتر، يخفق قلبي بشدة، ترتعش أطرافي أثناء رؤيتي لـ(فتحي) ممدداً على الأرض.

- ما الذي حدث، هل مات (فتحي)؟ صرخت بـ(سلام).

لم أستطع الوقوف أكثر، شيءٌ ما كان يجذبني لأسقط جاثماً على ركبتيّ.

بينما عرقي يتصبب على وجهي، إذ بـ(فتحي) يفتح عينيه و(سلام) يقهقه.

تتسع عيني، لا أصدق تلك المزحة السخيفة منهما، أنهضُ وأختفي بداخل خيمتي.

يلحقان بي، وصارا يلقيان عليّ بكلمات الاعتذار.

يقول (سلام):

أردنا أن نودعكَ قبل رحيلنا على طريقتنا كي تتذكرنا يا صديق.

يهز (فتحي) رأسه وهو ممسكٌ بكفي مبستما.

- ما زلتما مصرين على هذا الجنون؟

يردان بصوت واحد:

- بلى، مصران.

يضيف سلام:

- عند شروق الشمس سوف ننطلق.

أهز رأسي آسفاً!

ينخزني (فتحي) في خاصرتي محاولاً إضحاكي، أتنهد، يقطبُ (سلام) حاجبيهِ، ينهضانِ ويتركاني وحيداً بين وساوسي وخوفي عليهما.

يمر الوقت مسرعاً، السابعة من هذا الصباح، يستقيظ المعسكر، الجنود الذين سيذهبون لمهمة الاستكشاف يتجهزون، السيارات العكسرية على أهبةِ الانطلاق، (فتحي) و(سلام) يلوحان لي.

أقفُ بباب خيمتي، ممسكاً ببندقيتي، حاسر الرأس حائر القلب، أومئُ لهما، يبستم (سلام) وهو يهز بندقيته.

تنطلق السيارتان، تثيران الغبار الكثيف ليغطي وجه الرؤيةِ أمامي، تتواريان شيئاً فشيئاً خلف الجبل، حتى تختفيا تماماً.

أعود لخيمتي، أقرفص في الزاوية، أتأمل أمامي و أفكر بهما، ألوم نفسي، لماذا لم أمنعهما؟

في تلك اللحظات، تطلين، تفردين غيومك البيضاء فوق رأسي.

أتعلمين يا (زينب)؟ أتخيلكِ في كل مكان وعند كل وجع ومع كل هم.

لو كنتِ معي، ماذا كنتِ ستقولين لي؟

بماذا كنتِ ستنصحينني؟

أجد نفسي الآن عاجزاً تماماً، لم أكن في يوم في حياتي مثلما أنا الآن.

في لجةِ ذلك الصمت القاتم، يأتي أحد الرفقاء يناديني، يحمل لي في يده كوباً من الشاي الساخن وقطعة خبز.

- جاءت هذه الوجبة في وقتها. أقول له.

أشكره، ويتبسم ثم يختفي.

أشم رائحة الخبز حتى أشعر بها تتغلغل في رئتيّ.

أتذوق الشاي؛ حينها أتذكر نافذة منزلي في القرية وعينيك.

رائحة تذكرني بكِ، وطعم الشاي حين أرشفه، لذةٌ تشبه كثيراً كتابتي عنك.

أضع الخبزةَ فوق فخذي، أجمع كفيّ ممسكاً الكوب مستجدياً الدفئ مستحضراً وجهكِ.

أقضم قضمة صغيرة، وأرشف الشاي ببطء، متنفساً بعمق، وكلما استحضرتكِ تلاشيتِ فور تذكري لصديقيّ.

أقرر الخروج بعد هذه الوجبة، أفكر بأن أترك البندقية لبعض الوقت؛ لكن يجب عليَّ أن لا أتركها أبداً.. هكذا التعليمات.

يقولون لنا: حين تتخلى عن بندقيتك، فأنت تشبه من يتخلى عن شرفه.

أرمقها من زاويةِ عيني اليسرى وأشعر بغرابة الموقف، هي الآن تتعلق على كتفي الأيسر، هذا المكان تحديداً هو المكان الذي يقبع فيه قلبي.

أحزن حين أجدها في نفس الجهة التي تستوطنينها أنتِ.

لا مجال للغرابةِ يا (زينب)، رغم أن الشبه بينكما كبيرٌ جداً.

وظيفة هذا السلاح عادةً هو القتل، دفاعاً أو هجوماً؛ المهم إنه يقتل.

أنت تشبهينها تماماً، منذ أولِ يومٍ جئتِ فيه من المدينة إلى قريتنا، ومنذ تلك اللحظة التي سكنتِ فيها بجوار منزلي، كانت الصدفة؛ أن نافذتي كانت مقابلةٌ تماماً لشرفتك؛ منذ ذلك الحين و أنا مقتول، لكنك قاتلةٌ تتقنُ كيف تفتك بهذا القلب، وقتلها لا يحاسب عليه القانون.

الشمسُ بدأت حرارتها بالارتفاع، لاغيمة تبشر بالخير، كل شيء في المعسكر يبدو هادئاً.

لكن قلبي كان يبدو كساحة حرب، لا خبر يأتي عن (سلام) و(فتحي)، ولا طيور تمر هذا الصباح.

أفكر، و أقول في خاطري: لطالما أنه لا خبر يأتي فإن كل شيء هناك ما يزال بخير.

الجنود منتشرون في الأنحاء ككل يوم.

البعض منهم مر عليه عام والبعض الآخر تجاوز الأكثر.

القليل منهم جددٌ مثلي، لم يناهزوا الشهرين.

تفكيري الآن محصورٌ بصديقيّ ولم أجد وقتاً لأكتب عنك، لكنكِ حاضرة، حاضرة بكل قوتك.

ثلاثُ ساعات تمر منذ ذهابِ (سلام) و(فتحي) إلى الحدود، أشعر بدونهما بالملل خاصة من دون (سلام)، ولا أدري ماذا يفعلان الآن؟

الانتظار كائنٌ غريبٌ يعيش داخلك، يمنحك شعوراً بالضعف، بالقوة، بالتناقض، يجعلك تحتار في أمرك؛ حين تقع في شرك الانتظار فإنك تتعلق ما بين خيارين، إمّا المضي قدماً والتمسك بحبل المسافات والساعات الطويلة؛ وإما أن تقطعه تماماً وتتناسى.

أطيل التحديق في طريق الجبل الممتدة أمامي بوعورتها، نهايتها تتشكل لناظري كفوهة ضبابية بعيدة يملؤها الدخان والغبار.

الأشجار العارية على جانبيها؛ لها دور كبير في جعل نهاية الطريق يبدو بهذا الشكل.

الرياح غاضبة، تصدر أزيزاً مرعباً كلما مرت بثقوب الخيام، تحثو التراب، تجعل الأفق ملبداً والرؤية معدومة.

أنتظر لخمس ساعات، تمشي ببطء كأنما ركبٌ من السنوات يعرقل سيرها.

لا يتبين شيء، أشعر باليأس والتعب، أقرر الدخول إلى خيمتي.

الوحدة في أحايين كثيرة هي الملاذ الوحيد الذي نهرب إليه حتى من أنفسنا غالباً.

بينما أنا و اقفٌ بالباب، إذا بي أَسْمَعُ صوت محرك لسيارة يأتي من بعيد على شكل تموجات تتداخل في رأسي، فينتفض قلبي وأعود للخلف.

في تلك الأثناء تمر طائرةٌ تحلق بارتفاع منخفض وتصدر صوتاً مزعجاً ومرعباً.

الجميع في المعسكر يتفرقون ولم يبق إلا أنا، أنظر إلى السماء محدقاً، لكني لا أرى شيئاً عدا زرقتها الباهتة.

تصل السيارتان، أسرع باتجاههما، يتجمع الجميع، يشكلون دائرة كبيرة حولهما.

تلك اللحظات الأشد على قلبي الأصعب.

أشعر بأن قلبي قطعة زجاج، سوف تنكسر في أي لحظة و أنا متوقعٌ أن أَسْمَعَ أخباراً لا تسر.

يُفتح باب السيارة الأولى، ويخرج الجنود الثلاثة، ويتجهون مباشرة إلى خيمة الضابط.

أُمسِكُ بقلبي، يفتح باب السيارة الأخرى ليخرج الجندي الأول، وإذا بـ(فتحي) يخرج بعده، و(سلام) يمسك به من الخلف.

لا أصدق ما أرى، يهرع الجميع إليهم، يسألون: ما الذي حدث؟

أقفُ في منتصف الدائرة، يمسك (سلام) بيد (فتحي) المصابة، الدماء تملأ بزته، وشفتاهُ جافتان.

(سلام) ينظرُ إليّ، مقطباً حاجبيه؛ يومئ لي بالاقتراب، أمسك بيد (فتحي) اليمنى ونذهب به إلى الخيمة المخصصة لاستقبال الجرحى.

- ماذا حدث يا (سلام)؟ أسأله بصوتٍ خفيض.

يقول لي:

سأحدثك لاحقاً، دعنا الآن نعالج جرحه.. لقد نزف كثيراً.

يأتي من فورهِ طبيب المخيم، يبدأ بخلع ثياب (فتحي)، وأنا أشيح بوجهي.

لا أحب رائحة الدم ولا منظره، ولا أحتملهما، أخرج مسرعاً من الخيمة، يلحق بي (سلام)، يبدو على وجهه التعب والانزعاج.

- ما الذي حدث هلا أخبرتني؟ أسأله.

- كدنا نهرب، كدنا نتوارى، لولا رصاصةٌ لعينةٌ لا ندري من أين جاءت اخترقت كتف (فتحي).

يتحدث بينما يديهِ خلف ظهره، والزبد يتطاير من فمه.

لم أجده مستاءً كما هذه المرة، أحاول أن أضع نفسي في مكانه لأجد أني كنت سأشعر بنفس شعوره هذا.

لا يملكُ الأنسان تغيير مسار القدر، ولا تحويل مجرى الأحداث، ولا حتى صنع الصدف لنفسه، إنه الحظ المحض ولا شيء غيره.

ندخل بعد نصف ساعة لنجد (فتحي) ينام بعمق، يجلس (سلام) بجانب رأسه، يمسكُ بكفه ويتنهد بتحسر، وي كأنه يلوم نفسه؟

يترك كفه، يسند ظهره إلى عمود الخيمة ويبقى صامتاً.

لا يشعر (فتحي) بشيء من جراء المخدر الذي يسري في جسده النحيل، كتفه ملفوفة بالشاش وشفتاهُ شاحبتان.

أشعر بغصة تخنقني متذكراً (أحمد).

يدخل الجميع واحداً تلو الآخر ليطمئنوا عليه، يتساءلون محاولين معرفة ما حدث.

أقتربُ من (سلام) مربتاً على كتفه، ثم أخرج من الخيمة متجهاً إلى الصخرة الملساء التي باتت تعرفني جيداً، تعتريني رغبة بأن أبقى وحيداً أكتبُ لك بعض ما كان يعتريني من خواء.

أفكر كثيراً بكتابة رسالةٍ لصديقة (أحمد) "ناريمانا" وأخبرها فيها بأنه قد مات.

لا أدري لماذا كنت أشعر بغصة كلما فكرت بذلك، لكنه من واجبي إخبارها كي تعيش الألم ثم بعد ذلك تعود لحياتها إذا استطاعت النسيان.

أخرج من جيبي رسالتها لـ(أحمد)، وأضعها قبالتي و أكتب:

ناريمانا، صديقة صديقي أو حبيبته، لا يهم..

دعيني أخبركِ بأمر، أعلم أنك ستحزنين، ستبكين، ستيأسين، لكني على ثقة بأنك لن تحاولي الانتحار.. لا ماذا أكتبُ لكِ عن (أحمد)؟ لقد وصلت رسالتكِ، تسلمتها أنا، وقرأتها بدلاً عنه.

لا أدري كيف أخبركِ كيف مات (أحمد)، هكذا بلمحة طرف، تَرَكَ أثراً بالغاً وفراغاً لن يسده غيره.

كوني على يقين، بأني هنا ومستعد لأسمعك، أكتبي لي، وأخبريني بما تريدين، أدرك تماماً الجرح الذي سوف يفتك بكِ كما فعل بي.

أتعلمين؟ كان يحبكِ كثيراً، كان ينتظر اليوم الذي سينهي فيه مكوثه هنا حتى يعود إليكِ وإلى والديه، لكنه ذهب إلى مكان آخر تماماً، صدقيني، لا أدري لماذا أحدثك هكذا؟ لكني أشعر الآن بأن حمل هذا الأمر ذهب عن كاهلي، لستُ بخير لكني على الأقل أشعر بالرضا لأنك الآن عرفت بالأمر.

(يوسف).

أدون العنوان، و أترك الرسالة في جيب بزتي حتى يتسنى لي وضعها في صندوق البريد.

في اليوم التالي، الجو باردٌ والشمسُ على غير عادتها لم تشرق بسرعة، تأخر شروقها حتى الساعة الثامنة بسبب الغيم الذي حجبها عنا.

مرَّتْ أسابيع منذ هطل المطر، كنا في المعسكر بحاجةٍ إلى المطر، إلى البرد، لنشعر براحةٍ نفسية فقدناها منذ وقتٍ طويل.

أخرج من خيمتي متجهاً إلى صندوق البريد، أضع الرسالة، أتوقف، أتنفس، ألوم نفسي، وأحزن كثيراً.

أنظر إلى الصندوق المليء بالمظروفات، و أتمنى لو أني أضع لك رسالة، رسالة طويلة أحكي لكِ فيها يا (زينب) كل شيء حدث، لكني لم أستطع، وكيف لي أن أفعل.

أتجاوز مكانَ صندوق البريد بخطوات قليلة، ألمح (سلام) يجلسُ بباب الخيمة ممسكاً بعلبةِ فول فارغة يحتسي منها الشاي، يبدو شارداً، أرتبك و أنا أقفُ ما بينه وبين خيمتي، لا أدري.

هل ذهابي سيكون مناسباً في ذلك الوقت، أو أنه من المستحسن ابتعادي؟

يلمحني، يشير لي بكفه أن أقترب، تلتهمني المسافة فأجدني أقفُ أمامه، نجلس على الأرض، يدفع إليّ بعلبة الفول، كان ما يزال في داخلها القليل من الشاي، أمسكها و أتركها بجانبي.

ننظر لبعضنا طويلاً، أقرأ في عينيه الكثير من الأسى، الندم، الألم، الفقد، والخوف.

بنبرةٍ حزينةٍ يقول لي:

أنظر حالتنا يا (يوسف)، صرنا بائسين، سننتهي قبل انتهاء العام هذا، جئنا نقضي فيه ونعود جثثاً.

أنكس رأسي، وأواري عنه عينيّ كي لا يلمح الحزن المستفيض داخلهما.

- لا تيأس يا (سلام)، سننجوا.

يضحك ساخراً، بينما أصابعه تعبث بالتراب.

- كيف حال (فتحي)؟

يجيبني بابتسامةٍ مختلطة بالحزن:

- هو بخير، بخير.

نصمت معاً لبعض الوقت، مكتفياً بما في داخلي من وجع، وأحلام خشيتُ عليها في لحظة ضعفي تلك.

ومن دون أن أقول شيئاً أنهض مسرعاً، أجلس عند رأس (فتحي)، متأملاً ملامحه الذابلة، متذكراً لومه لي وحزنه على مرض والدته.

أتذكر (أحمد)، أتذكرك، أتذكر كل شيء وكل أحد في تلك اللحظات.

يجلس (سلام) بجانبي، أمسك بيده، و أقول له:

سأفعل ما بوسعي كي نذهب من هنا قبل الموعد المحدد، لا بد لك أن تلحق حبيبتك، ولا بد لـ(فتحي) أن يلتقي بأمه.

يبتسم (سلام) قائلاً:

ليكن طريقكَ مفتوحاً يا صديقي.

أطرق على كتفه مذكراً إياه بما كان يقول لي:

لنعش الحياة قبل الموت.

يردد خلفي وعيناه تلمعان بالدمع مخطلطاً ببسمة باهتة:

لنعش الحياة قبل الموت.

أتدحرج خارج الخيمة، متجهاً مباشرة إلى خيمةِ الضابط، كانت خيمته أكبر من خيامنا، وبطنه أكبر من بطوننا جميعا.

يقف حارسٌ بالباب كجذعِ شجرةٍ يابسة، يحدق في وجهي بإصرار، عاقداً حاجبيه بشدة، فأقتربُ منه قائلاً: أُريدُ مقابلةَ الضابط لأمر مهم.

- الضابط منشغل.

- بماذا يا رفيقي؟

- يتناول إفطاره.

قلت له ساخراً:

هل هذا انشغال يا جذع الشجرة؟

- احترم نفسك ياعسكري.

- إذن أخبره فوراً.. لن أتزحزح من هنا.

يأتي صوته من داخل الخيمة مغموماً بطعامه مستنكراً:

- ماذا يحدث يا حارس.

- أنا (يوسف)، حضرتك، أريد التحدث معك.

يبتلعُ الحارس ريقه، ويحدق بي بصمت.

أبتسم له وأربّتُ على كتفه، فيضحك، ويشيح بوجهه.

- ادخل يا (يوسف).

أدخل عليه الخيمة، وهو يجلس على كرسيٍ خشبي، والطاولةُ أمامه، عليها خبزٌ وشاي في كوب، على عكسنا تماماً.

أقف أمامه بكامل ارتباكي، ويداي خلف ظهري، شفتايَ مبتسمتان.

- أهلًا (يوسف)، اجلس.

يصلح من جلسته ويقول:

تفضل.. تكلم.

ينتابني غمٌ و أنا أسرد له ما حصل، مذ كان (أحمد) معنا حتى حادثة (فتحي)؛ لكني لم أبح بسر صديقيَّ، كلما حاولت الكلمات الانفلات من فمي ابتلعها.

أثناء حديثي مع الضابط، يداهم أسماعنا صوتٌ لطائرة، تنخفض؛ حتى يقع مسدسي على الأرض؛ تهتز الطاولة، وبات كل شيءٍ في غير مكانه.

يحتدم الوضع، وباتت الأغبرة تلفني من كل جهة، ذلك ما أستطيع تذكره و أنا ملقىً على سرير أبيض.

المحلول يتسرب في وريدي، وقدمي اليمنى مربوطةٌ بالشاش.

أفتح عيني لأرى أمامي هول الصدمة التي عصفت بي، لم أكن أنا الوحيد الذي يفترش السرير، لم تكن قدمي أنا لوحدي الملفوفة؛ بل كان يشاركني في الغرفة تلك: خمسةَ عشر جندياً من كتيبتنا، يستلقون على الأسرة، غائبين عن الوعي، أو نائمين.. لم يتبين لي ذلك.

أحاول النهوض، لكن ألماً في ظهري منعني، أنادي بصوت مرهق علَ أحداً يجيبني ليخبرني ما الذي حدث، و أين البقية، لكني لم أفلح، ولم يسمعني أحد.

بعد عشرين دقيقةً من الصمت الذي شَّلَ تفكيري، تدلِف ممرضة المشفى، وهي ترتدي بنطالاً وقميصاً أبيضين، سمراء، نحيفة، شعرها مضفورٌضفيرةً واحدة ومرميٌ خلفها؛ كحبلٍ يشتهي شنقك ولا تملك إلا الموت بسلام.

تتجه نحوي مباشرة، تبتسم، وتمد كفيها كفراشة إلى السيروم المعلق في وريدي.

أنظر إليها، أتفحصُ ملامحها جيداً، بينما هي منشغلةٌ بتركيب سيروم آخر.

- كيف حالك اليوم؟ تسألني من دون أن تنظر في وجهي.

- أين نحن، ولماذا نبدو هكذا، أين الجميع؟

تقول وهي تبدل ضمادةَ ساقي:

أنتم آلان في مشفى العاصمة، جيء بكم مجروحين إثر قصفٍ بالخطأ لطائرة.

- و أين الباقون، أين (سلام)؟، أين (فتحي) ؟

تضغط على جرحي قائلة:

لا أعرف عمن تتحدث لكن للأسف، الذين معك في هذه الغرفة هم الناجون.

انتقض قلبي.. أحاول النهوض، لا أستطيع مجدداً.

أسألها:

من الذي جاء بنا إلى هنا إذا كنا فقط نحن الناجين؟

- ثلاثة جنود لم يكونوا معكم أثناء القصف.

أصرخ بصوتٍ منهك، أنادي باسم (سلام)، كُنْتُ أظنني حين أنادي باسمه أنه سيجيبني من بين الجرحى الذين كانوا يتشاركون الغرفة معي.

أتعلمين يا (زينب)؟ في تلك اللحظات، شعرت بأن قلبي تجمد تماماً، فقدت الشعور، كأن ثمةَ ناراً تحرق صدري، أدركتُ أنني صرت غابةً يابسة، تحدق بها النار من كل جهة، تغادرها كل أشكال الحياة.

ذهبتْ الممرضة (جوليا) تتفقد أصدقائي، بينما أنا ملقىً على السرير، كأي شيءٍ زائد عن الحاجة.

أسدل اليأس ستاره على قلبي، تركتُ نفسي للنعاس الذي بدأ يتساقط كالمطر على عيني جراء المهدئ، تخليت عن مقاومته، بدأ كل شيء حولي يختفي، دخلتُ في عتمةٍ اتسعت لكل تلك الأحداث التي تساقطت قطعاً قطعاً في رأسي.

الغرفة المستطيلة التي تضمني ورفقائي، تبدو لي كليلةٍ طويلةٍ بلا انتهاء.

لون جدرانها الأصفر، يخنقُ داخلي براءة الصبر، يذكرني بلون جدران غرفتي، بإطار صورةِ صديقي (صافي)، بالمسواك الذي كان لا يفارق فَمَ (سلام).

تبدو لي هذه الحاضنة لأوجاعنا، ملبدةً بالوبال، بالفقد، بالجراح، بمواويل تجيدها آهات أحلامنا المنكسرة.

بعض الرفقاء، فقد ساقه، ومنهم من بترت ذراعه، والبقية ما زالوا غائبين عن الوعي.

أنا الوحيد الذي بقي سليماً، لكني فقدت إحدى رئتي، فأخبريني يا (زينب) كيف سأتنفس؟

بعد أسبوعٍ كئيب، يمتد ظله كجسرٍ من غبار عبر أوردتي، أقرر الرحيل من المشفى، تاركاً خلفي كل شيء.

حتى رفقائي الذين شاركوني مأساتي، لم أفكر كيف سأودعهم.

لم يكن قلبي في حالة جيدة صدقيني، كُنْتُ أشعر بفظاعةِ الدنيا، وكيف جعلتني أفقد أعز أصدقائي هكذا بلمحةِ بصر.

أخرج من المشفى، أقف على الرصيف المقابل تماماً لها، أبقى لدقائق أتأملها و أنا مسندٌ كل جسدي على عكازتي، التي بدا لي أنها ستر افقني طيلة حياتي.

يداهمني شعورٌ مرٌ و أنا ابتعد عن المشفى شيئاً فشيئاً، حتى يلتهمني طريقٌ طويلٌ خلف ناصيةِ الشارعِ الخلفي.

لم يكن قلبي بعد قد صدق فكرةَ أني فقدت (سلام) وإلى الأبد، أجلس على الرصيف، أنظر في ساقي المصابة، وتارةً أثبت نظري على عكازتي و أتسائل: أحقاً فقدت (سلام) ولن أراه ثانية؟، هل من المعقول بأن القدر قد أبدلني عنه هذه العكازة؟

ثم فجأة، تطلين من بين ركام تلك الأسئلة، سؤالاً كبيراً بقدر هذا الحزن الذي يكاد يقتلني، إن لم يكن قد فعل؛ تساءلت: هل سأراك ثانيةً أنت ايضاً؟، هل ما زلتِ في مكانكِ، هل ما زال كل شيء كما هو؟

اليوم، هو الأول من الشهر الثالث، منذ غادرت القرية، لا أدري كيف مضى الوقت؟، لكنه جاء بكل شيءٍ حزين.

ها أنا الآن وحدي، ليس معي أحد غير الفقد، سأعود إلى المنزل وحيداً، بلا رفقة (سلام).

أنهض من الرصيف، نافضاً غباره عن بنطالي، متذكراً كلمات صديقي حين كان يردد:

(لنعش الحب قبل الموت يا (يوسف).

أين أنت الآن لأخبرك بأننا عشنا الموت قبل الحب، و أين الحب بعد الآن لنعيشه يا صديقي؟

في جيب قميصي محفظةٌ صغيرة، فيها بعض المال الذي سيكفيني شهراً أو أكثر، هكذا أخبرتني الممرضة وهي تدسها فيه.

محيطةً علمي كما أضافت أنها وجدتها في جيب بزتي حين وصلتُ مجروحاً مغمىً علي.

أذهب باتجاه حافلات النقل، لم تكن نيتي العودة إلى قريتي، كان الأمر متعباً حين أفكر به.

يخبرني سائق الحافلة، بأن وجهته هي قريةٌ خارج حدود العاصمة.. أهز رأسي بأني أقصدُ القرية نفسها.

أرتبُ في رأسي أن أبقى لفترةٍ بعيداً عنكِ، وأن لا أعود إلى قريتي خلال هذا الحداد الذي يرتديني.

ثمةَ أمورٌ تمنعني من ذلك، منها أني غير مستعدٍ لأحبكِ كما يجب، ولست في وضع يسمح لي بالتغزل بخيالك كما أريد.

لم يخطر ببال لحظتي تلك، أني فعلاً أخلع كل شيء من داخلي و أبدله بأشياء جديدة.

القرية تتباعد، وشرفتكِ تتوارى في مخيلتي، والطريق تطول وتطول، وكل شيءٍ داخلي يختفي ويتلاشى.

نصل بعد ساعات من انطلاقنا، الجو بارداً و أنا متبلدُ المشاعر تماماً.

يوصلني السائق إلى لوكندةٍ قريبة، أقيم فيها ريثما أجد منزلاً أسكن فيه.

أدفع إليه أجرته، و أتجه إليها مباشرةً لحجز غرفةٍ لمدةٍ لا تزيد عن أسبوعين.

إيجار الغرفة زهيدٌ جداً، ببساطة لأن هذا المكان رديء للغاية.

أجول بنظري إلى المبنى، من شدةِ قدمه أشعر بأنه يكاد ينقض.

- الغرفة رقم عشرة.

يخبرني مدير الاستقبال وهو يمد لي بالمفتاح، فآخذه من يده، وأشكره على كل حال .

أصعد عشر درجات، ولكِ أن تتخيلي صعوبةَ الأمر وساقي مصابة، والعكازةُ عاجزة تماماً على حمل كامل ثقلي.

أفتح الباب، أدخل غرفةً صغيرة، أشبه بغرفتي، قطعة إسنفجة مستطيلة لا تلائم طولي، ولحافٌ خفيف جداً لا يسد رمق البرد.

النافذة مفتوحة، والرياح تلج ببردها ليستقر في عظامي.

الغبار يتطاير، وأعقاب سجائر أحدهم على طاولةٍ صغيرة مركونةً في الزاوية.

أطل من النافذة، أرى أمامي قريةً ممتدة، لا تشبه قريتنا يا (زينب)، إنها تبدو شاحبة مُكْفَهِرّة.

لا يوجد أمامي غير هذا المنظر، يختنق لونها الأبيض في الأفق من شدة الجفاف.

أتمنى لو أنك هنا، أتمنى لو أنك تطلين من شرفتك على وجعي العميق، رغم أنك لا تدركين ما الذي تفعلينه بي؛ لكنك الدواء الوحيد لعلاتي الكثيرة.

هل تعلمين؟

فقدتُ شالكِ الأسود الذي كان يصبرني على عدم رؤيتك، فقدته في المخيم مثلما فقدت جميع من أحب.

ما زلتُ أتذكر كيف سقط خلسةً منكِ و أنت تطلين من الشرفة، وكيف هرعتُ لأخذه؛ كانت رائحة البخور ما تزال عالقةً فيه بقوة.

الآن وقد فقدت كل شيءٍ أحبه، كيف سأستعين على الصبر بشيءٍ يصبرني على كل هذا؟

لستِ هنا لتجيبي، حتى لو كنتِ هنا فلن تعلمي بماذا تجيبين، ببساطة لأنك لا تعلمين ما الذي أخفيه عنك، ولك.

أسأل نفسي و أنا مطلٌ على الأفق المندلع أمامي:

هل سأجدكِ عندما أعود؟

ما الذي سيحدث لي حال عودتي ولم أجدكِ؟

الإجابةُ المرةُ تعتصرني، فلا بد أن أتوقع الأسوأ دائماً كي لا تزيد حالتي سوءاً حينها.

أشيح بنظري يميناً، حيث تقبع خزانةٌ متوسطةَ الحجم، أقترب منها لأخلع ملابسي وأدسها داخلها.

رائحةُ جسدي تفوح بشدة، ولا رغبة لي بالتفكير بأخذ حمام.

داخل الدرج ألمح شيئاً أبيض، أفتحه لتسقط الأوراق أرضاً وينخلع باب الدرج المهترئ معها.

"كأنها جاءت في وقتها". أحدث نفسي.

أفتحُ الدرج الذي يليه ببطء كي لا ينخلع هو الأخر، أَبحثُ عن قلم بين كل تلك الزحمة من النفايات المكدسةِ فيه، أوراق كثيرة مكوّرة، كأن من كتب فيها كان ينوي رميها بعد ذلك.

بعد يأس؛ أجد قلم حبر، يبدو لي أنه لم ينتهِ بعد، لم أفتح الأوراق ولم أهتم بذلك، أتركها في مكانها وأغلق الدرج.

آخذ ورقةً، هي الوحيدة السليمة.

أجلس ببطء، أمد ساقي المصابة التي باتت كجذع فارغ، وأرمي العكازةَ خلفي.

أحاولُ الآن أن أكتب وحسب، من دون أن أحتاجَ إلى تذكرك، أو حتى أن أستنشق عطرك.

أفرد الورقة أمامي، أغمض عينيّ، أفتحهما بعد لحظات، لا شيء يمر في ذاكرتي.

إنها المرةُ الأولى التي ينتابني هذا الشعور، مزيجٌ من الخذلان، الضعف، الندم، العجز، والشوق كذلك.

لا شيءَ يتواردُ في ذهني الآن، ليس أمامي سوى أن أطوي هذه الورقة و أترك أمر التفكير في كتابةِ شيءٍ الآن.

أنظر باتجاهِ النافذة، حيث كانت نصف مغلقة، ثمةَ فراشة تحوم حول النور المتسرب من الخارج.

أطفئ النور، أختبئُ تحت لحافي، محاولاً استجداء النوم، لكن بلا جدوى.

تمر الساعات سريعاً، أسرع مما تتخيلين، تشرق الشمس، أفتحُ عينيَّ على لفح حرارتها في وجهي، عنقي تؤلمني بشدة، لدرجةِ أني بالكاد أحركها، كما ظهر لي أنني غفوت على حالتي تلك.

أشعر بمغصٍ في معدتي، أتذكر للتو بأنني وصلت من سفر ساعتين ونصف، ولم آكل شيئاً.

أمد يدي لأمسك عكازتي، أتذكر ساقي التي نسيتها الليلة الماضية، حتى أني نسيت أمر تغيير الضمادات، وتعقيم المسامير المندسة فيها بنهم.

أمص شفتيّ، أحاولُ تبليلهما بريقي، أشعر بلساني متيبسةً، وحلقي جاف.

آخذ جسدي الهزيل، وأدفع به خارج الغرفة، و أنزل الدرجات العشر ببطء، وأجلس في كرسيٍ خشبي في صالة اللوكندة.

يبستم لي مدير الاستقبال، أهز رأسي، يمسكُ ثلاجةً صغيرة بيضاء ذات غطاء أحمر، يسكب منها كوبَ قهوة بالحليب، يدفعه إليّ، فأبتسم مجدداً، قائلاً في نفسي: لقد جاء كوب القهوة في وقته.

- من أين جئت يا أخ؟ يسألني وعيناه تجولان في جسدي.

- من العاصمة.. خرجت من المشفى و أتيتُ إلى هنا.

- كما يبدو لي أنت لستَ من هنا؟ يسألني بينما يمسك القلم ويفرد الدفتر.

- نعم.. سأبقى في هذه القرية مدةً قصيرة، ثم أعود إلى قريتي الأصلية.

يصمت، فأصمت، لم يسألني عن تفاصيل أخرى، ولم أشأ أن أسرد له قصصاً أحاول نسيانها، ولم أجد في وجهه ما يجعلني أشعر باندفاع للحديث.

- أشكرك على القهوة، يلزمني الخروج.

يهز رأسه مبتسماً، ثم يعود ويقلب الدفتر محركاً القلم في فمه يَمنةً ويَسرة، كأنه يدخل في حالة شرود وخروج من الو اقع، هكذا بدا لي.

يداهمني شعورٌ غريب أثناء خروجي من هذا المكان، يشبه الخوف، لكنه لم يكن خوفاً.

صدقيني، لم أتبينه، أحاول تناسيه والانشغال بما هو أمامي.

أرى امرأة مسنة تجلس على الرصيف المقابل، تبيع الخبز والجبن المقدد، هذا النوع من الجبن لم آكل منه مرةً في حياتي، لأنني لا أستسيغه أبدا، لكن هذه المرة قررت بأن أتذوقه.

أقترب منها، وعيناها تنظران إلى ساقي، مبتسمة، ألقي عليها التحية لكنها لم تتكلم وتكتفي بهز رأسها، تحدق في وجهي حتى أرى الدمع يكاد يقفز من عينيها الغائرتين ليعانق ملامحي.

تأخذ كيس خبزٍ وقطعة من الجبن، ولفتهما في كيسٍ أسود، تناولني إياه.

صامتة طيلة تلك الدقائق، مكتفية بالتحديق إليّ وحسب.

أدس كفي في جيبي وأخرج ورقةً نقدية وأضعها في يدها، وبينما أنا أهم بالذهاب إذ بي ألمح بجانبها صورةً لرجل يرتدي بزةً عسكرية، ذا شاربٍ طويل، وجهه مألوفٌ لدي كأنني رأيته، غير أنه لم يتبين لي من يكون.

أدقق النظر من زاويةِ عيني اليسرى خوف أن أعرفه.

أذهب يا (زينب)، لم أستطع البقاء ولم أجد متسعاً لأسئلةٍ أخرى تموت في بداياتها الأجوبة.

يحشرني الخوف في زاويةٍ معتمة من هذا الكون.

أمضي مكتفياً بما داهمني من شعور بالوجع.

تمر أيام على إقامتي هنا، لا أدري كيف مرت رغم رتابتها.

أذهب ذات مساءٍ أعد المال الذي بحوزتي، أشعر بالخيبة عندما أكتشف بأن المال بات على وشك النفاد، لم يكفني سوى شهرٍ واحد، على عكس ما قالته لي (جوليا) الممرضة.

"في حالتي هذه ما الذي عليّ فعله يا ترى؟". سألتُ نفسي.

أنا في مكان غريب، ومصاب أيضاً، كيف سأجد لي عملاً مناسباً يقيني برد هذه الحاجة في مكان لا تعرفني فيه سوى خيباتي؟

صباحاً أقرر النزول من غرفتي، والذهاب إلى أحد المحال التجارية المكونة برتابة على أحد نواصي شوارع هذه القريةِ الكبيرة؛ لأبحث عن عمل مناسبٍ لوضعي هذا.

أقطَعُ الشارع ببطء متلفتاً حولي، فاتساع هذا المكان يضيق على رجلٍ مثلي بساقٍ معطوبة وذكريات حزينة.

يقابلني مباشرةً، محلٌ صغير، كما تبين من اللافتة بأنه للمواد الغذائية.

أدلِفُ من الباب، فيستقبلني شابٌّ عشريني، يرسم ابتسامة عريضة على وجهه، تذكرني بأشياء جميلة كادت تغيب عن ذهني.

أخبره عن وضعي مفصلاً وأطلب إليه أن يجد لي عملاً يناسب وضعي، يتبسم وهو يعبث بخيطٍ ناتئٍ في سترته قائلاً بأنه سيفعل جهده غير واعدٍ لي، لأن مثلي لا يجد ما يناسبه من عمل.

أردف قائلاً أن الكثيرين غادروا هذه القرية فارّين من وضعها المأساوي، فرغم أنها قريبة من العاصمة غير أنها قليلة الحظ.

يصمت وهو يرصُّ كراتين المشروبات في زاويةِ محله الصغير..

و أنا فأقف خارجه وليس بوسعي سوى التحديق!

غريبٌ أن يلتهمك العجز هكذا، كيف لك أن تعبر المكان الذي وقفتْ عليه من دون أمل؟

خيطُ الحياةُ شبه منقطع و أنت تحاول جاهداً ربطه بالجهة الأخرى، لكنك لا تنجح.

تكتفي بعد خيباتك، برسم ملامح حاضرك، بتفكيك ألغاز محيرة، ويستمر فشلك.

أخرج من عند صاحب المحل صفر الأمل، ألوم نفسي، كيف جِئْتُ إلى هذا المكان و أنا في وضعي هذا؟

أقع في حَيْرَةٍ من أمري حقاً، لم أعد أدري هل ألوم وجودكِ في حياتي أو ألوم نفسي أنا؟

ليس لكِ ذنبٌ في كل هذا عموماً، ببساطة لأنك لا تعرفين ما الذي أعانيه!

ألمٌ شديدٌ يتفرق في أنحاء ساقي، بات لونها أزرق تماماً، بتُ أرى القيح بجانب المسامير المتداخلة في لحمي، وَخْزٌ وتنميلٌ شديدان يتفرعان في كل جسدي.

ليومٍ كامل لم أضع المطهّرولم أكمل شرب الجرعة الأخيرة الدواء.

باتت حالتي مزرية للغاية ومن الأفضل أن أجد مخرجاً من مأزقي هذا.

هكذا كنت أحدث نفسي طيلة الوقت.

أقفُ في منتصف الشارع، بمكان سكني المؤقت أمامي؛ والحيرة من خلقي تطوقني.

الأحلام باهتة، باهتة يا (زينب)، ليس لها إلا لونٌ واحد؛ إنه لون سواد شرفتك حين كنتِ تغادرينها، و أبقى حبيس ظلك.

تمرين مثل المطر، غير أنكِ لا تروين جدب هذا القلب، تقفزين مثل لحظة، تندسين في مخيلتي كنجمة لامعة، غير أنها لا تؤمن بمواعيد العاشقين.

أعود إلى السكن البائس، خالي اليدين، يستقبلني مديراللوكندةِ هذه المرة، مخبراً لي بأن عليّ أن أجد مكان آخر خلال يومين أو خمسة أيام، لأن عدد الأسر النازحة كما قال ازداد، وبما أني بمفردي سأتدبرُ أمري.

يتحدث بكل برود، لا أستطيع إخباركِ بما كان يشتعلُ داخلي أثناء حديثه.

رجل قصير القامة ذو أنفٍ صغير وعيون جاحظة، صلعته تلمع بشدة ور ائحة الفازلين تفوح منه.

أكتفي بالتبسم، وأهز رأسي ثم أصعد الدرجات حتى أصل إلى غرفة السكن.

أجلس في الزاوية وأحاولُ أن لا أستحضر خيالك، حتى أتمكن من إيجاد حل لمشكلة السكن هذه.

أقول في نفسي مؤنباً:

ما الذي يجعلني أعيش هذه التجربة، لماذا لا أعود إلى قريتي ومنزلي والتخلص من هذا الضياع؟

تتابع الأحداث في رأسي، تتداخل الصور والوجوه وكثير من الأزمات تعبر كذلك.

يهبط الظلام على الكون، ويغلفه بإتقان، يجعل منه مكاناً آمناً تضع فيه القلوب أحمالها.

في الخارج أَسْمَعُ أصواتاً متداخلة لشتى الحشرات، أعجز عن تمييزها، أكتفي بإلقاء السمع والانشغال بتلك الألحان الغير منظمة.

أفتحُ كيس الخبز، وأخرج واحداً، وأدهن عليه قطعة صغيرة من الجبن المقدد ثم أَبدأ بالتهامه.

طعمه لم يرقْني كثيراً، لكن ليست فكرة جيدة أن لا آكل هذه الليلة.

بعد ذلك، أخرج زجاجة المطهر من حقيبتي، وأبدأُ برشه على ساقي، وأشعر بوخز لكن لا بد من التحمل!

أعيد ربط الضماد الجديد و أترك ساقي ممددة.

أحك لحيتي التي باتت طويلة وكثيفة، لم أفكر بحلقها طيلة شهر منصرم، ولن أقوم بذلك، على الأقل في الوقت الحالي.

الثامنة مساء، تشير ساعة الحائط.

رتيبةٌ هذه الليلة ككل أيامي ولياليّ التي مضت.

في اليوم التالي، في تمام الثامنة صباحاً، أنهض من نومتي المتعبة بآلام تمتد في ظهري ورقبتي وكتفيّ، فأغسل وجهي وأجمع ماتناثرَ من أوراقي، أضعها في جيب حقيبتي، أغلقها جيداً، أرتبُ المكان، أغلق النافذة وأخرج ببطء، و أنزل الدرجات العشرة بصعوبة، أمد يدي بالمفتاح وأضعه أمام مدير اللوكندة.

يأخذه ويزلقه في درج الطاولة التي أمامة، وأشكره على كل شيء، يهز رأسه ممتناً، يمد يده ليصافحني وهكذا ينتهي كل شيء هنا.

أمشي مسافة عشر دقائق حتى أصل إلى المكان الذي تتجمع فيه حافلات النقل الجماعي.

السفر فيها يتعبني إلى حد التقيؤ، ولكم هو أمرٌ محرجٌ أن تتقيأ بحضرة أطفال ونساء!

يراني السائق فيلوّح لي بيده لأقترب، فأدفع له كل ما تبقى بحوزتي من مال بشرط أن يأخذني إلى نقطة قريبة من قريتي وبعدها سأتدبر أمري، وبعد أخذٍ وردّ، يوافق أخيراً.

أصعد الحافلة بعد أن أشتري علبة عصير وكيساً من البسكويت، فإن جعت أو شعرت بدوار السفر قد أضطر لأكله.

أجلس في المقعد الأخير، أمد ساقي المكبّلة بالمسامير، أضع حقيبتي بجانبي و أتكئُ عليها.

الحافلة ممتلئة تقريباً، وأغلب الركاب من الرجال، خمس نساء فقط كن يجلسن في المقدمة، رائحة عطورهن تملأ سماء الحافلة، كاشفاتٍ لوجوههن، لم يكن جميلات كثيراً، فجمالكِ أنتِ مختلفٌ وعطرك مختلف.

أثناء تحرك الحافلة، تنهض إحداهن وتقوم بتوزيع أوراق على الركاب، تصل إليّ، تمد لي بورقة، آخذها وأضعها على فخذي.

تقطب حاجبيها المرسومين بقلم أسود وملامحها تشي بالتساؤل، لم تتفوّه بكلمة، تعود إلى مقعدها بهدوء، وتأخذ هاتفها المحمول وتنشغل فيه.

آخذ الورقة التي أعطتني تلك المرأة، أقلبها لكي يقف الدم في رأسي فجأة..

صور رفقائي الذين قضوا في المعسكر، أسماؤهم مكتوبةٌ بلون أحمر وكلمة "شهيد الوطن".. متروكة باللون الأخضر.

صورتي في آخر الورقة، ضحكتُ في نفسي وقلت:

جيدٌ أنني شهيد، إذن أنا في الجنة.

أدركتُ الآن لماذا حدقت المرأة في وجهي، مع أن الذي بالصورة لم تكن لحيته بهذه الكثافة، ويرتدي زياً عسكرياً، و أنا حالياً أرتدي بنطالاً وقميصاً.

لكن ملامحه بطبيعة الحال هي ملامحي.

أشعر بالحزن فأضع الورقة في جيب بنطالي وأعود إلى حالتي السابقة، أفكر ما الذي سيحدث عندما أصل إلى القري؟

بعد أربع ساعات متواصلة، نصل إلى قرية صغيرة على بعد عشرين دقيقة من قريتي، وتتوقف الحافلة على مقربةٍ من تقاطع طريق فرعية.

علمتُ بأن هذا المكان هو آخر نقطة للحافلة ولا مقدرة لها بالاقتراب أكثر.

أنزل ببطء، مقدماً عكازتي، ثم قدمي السليمة، وأشعر بوجع شديد يا (زينب)، لم يكن ألم ساقي، الألم هنا في قلبي.

أضع الحقيبة فوق صخرة، أجلس بجانبها متنفساً هذا الهواء المختلف، أنتظر بقربها سيارة تقلني إلى قريتي.

لحسن حظي تمر سيارةٌ صغيرة، أشير بيدي فيتوقف السائق، أخبره بأن يقلّني في طريقه.

يخرج رأسه فإذا بي أجده (فارس) جاري الملتصق بي، فيصرخ عندما يراني، يخرج ثم يحتضنني بقوة غير مصدق لما يراه أمامه.

أما أنا فأكتفي بالصمت غير مستوعب لما يحدث.

يحمل (فارس) حقيبتي بدلاً عني، يجعلها في الصندوق الخلفي للسيارة؛ نركبها ونبدأ بالتحرك فورا.

يسألني وهو يمضغ علكاً بنكهة البرتقال: سلامات؟

أقول: لا تسلني يا (فارس).. اششش.

يهز رأسه موافقا.

ننطلق مسرعين، صوت عجلات السيارة قريب جداً من صوت الطائرات، حفظته جيداً وبت أدرك الآن في أي رعب كنا نحيا في المعسكر.

ينطلق صوت (فارس) من بعد صمت استمر لعشر دقائق، يقول لي:

لا تخف عندما نصل القرية.

أقطّب حاجبيّ مستغرباً.

يردف قائلاً:

-لقد تم قصفها أربع مرات حتى غادرها معظم الساكنين؛ لن تجد فيها يا رفيقي غير الخواء بعد الآن، باتت كأنها قرية أشباح.

- هل تمزح معي يا (فارس)؟ سألته مستغرباً.

يهز رأسه نافياً، ويعتم علينا الصمت، مكتفيين بالتحديق أمامنا.

الغبار المتطاير جراء سرعة السيارة، جعلني أشعر بدوار، أشبك أصابعي و أنتشي حزناً.

نصل القرية، ومدخلها يبدو لي وكأنه يعتريه الحزن، بل إنه كذلك.

هذي الطريق الملتوية كأنها ثعبان فاغرٌ فاه يستعد لالتهامي.

من بعيد، يطل منزلي الصغير، كحلم ناهزه الحنين فذبل.

يبدو كئيباً، لدرجة أنني لم أشعر تجاهه بتلك اللهفة ولا بذلك الشوق.

يتوقف (فارس) بجانب منزله، ويطلب مني بأن أبيت عنده لفترة ريثما أستعيد عافيتي.

أنزل من السيارة غير واعٍ لما يقوله، وأتركه بجانبها ممسكاً بالباب، وأدفع بنفسي ببطء خارجاً منها.

صوته وهو يتحدث يتردد كصدىً بعيد، وأنا أتقدم شيئاً فشيئاً باتجاه منزلي، بل باتجاه شرفتك.

كل شيءٍ حولي يختفي يا (زينب).

ها أنا أقفُ بعد غياب ثلاثة أشهر قبالة منزلك، أدير عيني، أشهقُ مرات ومرات.

يخترق صوت (فارس) أذني كريح باردة، يخبرني بأن من كانوا في هذا المنزل قد غادروه.

أستطيع أن أقول لكِ الآن، بأني فقدت رئتي فعلاً.

أترك (فارس)، ورحتُ أنبش حجراً بجانب باب منزلي لأخرج منه المفتاح الذي خبأتُهُ ذات صباح.

أتعلمين متى كان هذا الصباح صباحا؟

يومها كنت تنفضين الستائر، حين سقط شالكُ الأسود فأخذته من دون أن أخبرك، لكني أضعته؛ كما أضعت كل شيء مني الآن.

أجلس على عتبة الباب، أتأمل وجه القرية الذي خربته الحرب، وجعلته بلا ملامح.

أتلفت حولي فأجد أن (فارس) قد اختفى، بعدما قال كلمات لم أتبينها.

أسأل نفسي و أنا أقفُ هنا أمام طيفٍ كان يجلس قبالتي:

كيف لي أن أستعيد ميلاد فرح ذهب؟

أخلَعُ كل ملابس الوقت العالق في جسدي، أدفع روحي المتعبة وأنهض ببطء حنين دلف من بين أصابعي وذهب.

أفتحُ الباب، أدخل منزلي بعد غياب.

الأغبرة المتطايرة أمامي؛ شكلت غيمةً رمادية وأرى نفسي أنغمس فيها باشتهاء.

أصعد العلية، درجاً درجا، حتى أصل أخيراً.

أفتحُ النافدة، أرى أمامي بقايا أغصان عارية تماماً وجافة.

حتى زهر اتي التي ربيتها مذ كانت بذوراً لم تنتظر عودتي.

أمد يدي لأمسك بأحد فروعها، فإذا به يتفتت ويسقط دفعةً واحدة.

كم الفقد مثيريا (زينب)! إنه انغماس الروح في طين الوداع، إنه احتفاء الجسد بثقوب كثيرة ستظهر كل ذكرى.

من يسد تلك الثقوب؟ من يعالج ارتجاع الفؤاد الملبّد يا عزيزتي؟!

ها هي شرفتك تبرز أمامي عارية، لم يعد الزجاج يراود عينيّ، ولم يعد التحديق مجدياً بعد الآن.

أقفُ بكامل أناقة الفقد داخلي، أتلمس من خلف قضبان قلبي طيفاً عابراً، لكنه لا يمر.

كل شيء في القرية أصبح بلون واحد، إنه لونُ غيابك يا (زينب).

لم تنتظري عودتي، كنت أنتوي إهدائكِ دفتر المذكرات، فالحروف التي نسجتها هنا باتت خاصتك أنت!

أذهب باتجاه خزانتي لأودع فيها هذا الدفتر، أضعه وأخبئه جيداً بين الملابس القديمة، حتى لا تراه الأعين بعد اليوم.

أنظر إلى الإسفنجة المتروكة منذ ثلاثة أشهر في يمين الغرفة، فتتطاير الأغبرة عندما ألقي بثقل جسدي عليها.

مطفأتي ما تزال هنا على الطاولة، وحدتي المتراكمة على أكواب الشاي الفارغة، وطيفك.

أحدق في السقف، أرسم لوجهك إطاراً يليق به، إطاراً من فقد ووداع وضياع.

أشهق، وأنا أردد اسمك.. يضيق السقف، تتلاشين، يختنق ظلك اليابس على النافذة، وتبقى همهمات شالِك تراود اعترافاتي اليتيمة.

عندما تكتبك الأحداث حرفاً حائراً ما بين البداية والنهاية، كل ما عليك فعله حينها هو الاعتذار من نفسك حتى لا تميت ما تبقى منك في مدوناتك الهزلية.

الحرب حروف مشتعلة لا تطال إلا قلبك المقفر، بعيداً عن الحب، استمر فقط في التناهيد؛ هكذا تكتب لك نهاية تليق ببؤسك!

صباحاً، أخرج من منزلي مثقلاً، أقف على ناصيةِ الشارع، أنتظر (لطفي) ليمر، لكنه لم يفعل.

القرية غدتْ امرأة ثيِّباً، بعدما فضّتها نيران الحرب.

علمت من (فارس) لاحقاً بأن (لطفي) وأسرته غادروا القرية فارين.

سألت نفسي: من سيوقظ سبات الرصيف بصوته بعد الآن؟

ببساطة: لا أحد.

أمد بصري إلى أنحاء القرية، لأرى خلف الجدار القريب (سلام)، يقتربُ مني ببطء وعيناه تضحكان.

أَسْمَعُ صوته وهو يقول لي:

يا (يوسف) لنعش الحب قبل الموت.

أرددها بيني وبين نفسي: لنعش الحب قبل الموت، لنعش الحب قبل الموت.

أنفض الغبار عن ثيابي، وأغيبُ بين أزقّة القرية، أَبحثُ عن طيفٍ يدلني، أين سأجد هذا الحب الذي يفترض بي أن أعيشه.

أقفُ على بعد مسافة من حفرة عميقة، صنعها صاروخٌ أعمى، و أقول في نفسي: لربما جاذبية العشق الغريبة دعته حتى صنع هذا الفراغ الكبير؟

ألتفتُ يساراً صوب شرفتك، فأراك تنفضين الغبار عن الستائر، تنظرين إليَّ وتتبسمين.

يبتسم قلبي، و أنا أفرك عينيّ و أفتحهما، لأجد الخواء يتلفع القرية بأكلمها.

أجلس على الرصيف، ويمر من جانبي طفلٌ يبيع الأوراق، فأبتاع منه واحدة، فيبتسم ويمضي.

أفردها، وأصنع منها طائرةً كما كنت أفعل في صغري، وأصوبها باتجاه السماء، و أتركها لتسقط على الأرض.

هكذا أيقنت أنك قد رحلتِ!

أنظر إلى الورقة والرياح تعبث بها، حتى تركتها في زاويةٍ لحجر كبيرة، وهناك حُبست الطائرة الورقية.

أردّد بصوت خفيض:

لنعش الحب قبل الموت، لنعش الحب قبل الموت!

هكذا أكمل الطريق إلى منزلي.

أمضي على هذا الحال عدة أسابيع.

أقرر بعدها بأن أغادر القرية مجدداً وهذه المرة سيكون الرحيل مختلفاً تماماً.

لن تَكُونِيْ معلقة على الشرفة، ولن يأتي (سلام) ليأخذني معه؛ هذه المرة سأغادر بمفردي.

أحملُ حقيبتي، وهذه المرة أيضاً سيكون حملها ثقيلاً.

أضع فيها صورة صديقي (صافي)، وبجانبها صوراً لي ولـ(سلام)، كما نحن غريبين في هذا الإطار!

مطفأتي، أوراق فارغة، كوب الشاي الذي يذكرني بك، فنحن في أكثر أوقاتنا نحتاج لنتذكر حزننا أو سببه لنا، لا أدري ما السبب؟، لكني هكذا أفكر.

المعسكر ينتظرني، هناك فقط أستطيع أن أجد لي ملجأً أخفي فيه كل أوجاعي.

وقبلها علي العودة إلى العاصمة كي أذهب وأزور الممرضة (جوليا)، ولكي أخرج هذه المسامير من ساقي.

أحملُ حقيبتي، وأخرج وأغلق الباب، و أقفُ في منتصف الشارع، لأودع كل شيء يخصني هنا، كل ذكرياتي ومذكر اتي.

ينتظرني (فارس) قرب منزله، ويتلقاني مبستماً كعادته.

نصعد السيارة، ويحرك مفتاح السيارة، وننطلق بسرعة كبيرة.

القرية خلفي يا (زينب) تتلاشى، ها أنا أتركها وكأنها لم تعد تهمني.

تغيبُ ملامحها، بينما أنت توقظين في داخلي كل احتمالات الرجوع.. ها أنا أكتب لك ولكن بقلبي وليس على الورق!

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

Gmail

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook

facebook.com/arabiclibrary2017